

القيم بين النسبية والثبات

دراسة في المصادر والنتائج

إعداد الدكتور

محمد نجدي حامد عبد الحميد

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر- القاهرة

القيم بين النسبية والثبات... دراسة في المصادر والنتائج

محمد نجدي حامد عبد الحميد

قسم أصول الدين- عقيدة وفلسفة- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين -
جامعة الأزهر- القاهرة- مصر.

البريد الإلكتروني: mohamedabdelhamid. @azhar.edu.eg

الملخص:

إن الجدل الدائر حول نسبية القيم وثباتها ليس جديدا على الفكر الإنساني، بل إنه يضرب بجذوره إلى ما وصلنا عن فلاسفة اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد وظهور الحركة السفسطائية أصحاب العلم المغلوط، والذين اعتبروا أن القيم متغيرة ونسبية وغير ثابتة، وشككوا في كل شيء معرفة وقيما وأخلاقا، فهدمت موضوعية القيم وحكمت بذاتيتها ونسبيتها، وأخضعتها للإنسان، معتبرة إياه مقياس كل شيء خيره وشره، وقد تصدى لهؤلاء السفسطائيين سقراط وتلميذه أفلاطون وأرسطو وحكموا بأن القيم مطلقة وثابتة وأنها تقوم على العقل، انطلاقا من الدين الطبيعي الذي آمنوا به... ومن هنا نشأت الفلسفة المثالية التي ترى أن القيم مطلقة، وأنه يجب أن يكون هناك مثال يسعى الواقع إلى تحقيقه، وعلى النقيض من ذلك ذهب أصحاب الفلسفة المادية، والنظرية الاجتماعية، ومن سار في ركبهم إلى أن القيم نسبية متغيرة، ليس لها وجود موضوعي، وإنما وجودها شخصي، قد يؤثر فيها الفرد أو المجتمع لتصبح قيما سلوكية حاکمة للفرد، وإن الاستشكال الذي نحاول أن نفك به الاشتباك والاشتباه الحاصل بين مختلف الفلسفات والطوائف والديانات يدور حول وجود أساس موضوعي مطلق للقيم، ووجود ثبات دائم لها، أم هي نسبية وذاتية تخضع لرغبات الأفراد والجماعات؟ وما المنطلقات والمصادر التي استند إليها القائلون بنسبية القيم أو ثباتها، وما النتائج المترتبة على كل قول منها؟

الكلمات المفتاحية: ثبات القيم - النسبية - السفسطائية - الموضوعية - المادية -
مصادر القيم.

Values in between Relativity and Constancy

A Study of the Sources and Results

Mohammed Nagdy Hamid Abdelhamid

Assistant professor of Creed and Philosophy

Department of Osoul El-deen

Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo

Azhar University

Email: mohamedabdelhamid.4@azhar.edu.eg

Abstract :

The current controversy surrounding the relativity of values and their constancy is not a new issue to human thought. This dialectic issue was deeply rooted in what has been delivered to us by the Greek philosophers of the fifth century B.C, and the rise of the sophistry movement which was based upon a fallacious science. The sophists thought of values as being variable, relative and inconstant. In addition, they doubted everything in terms of knowledge, values and ethics. As a result, the objectivity of values has been demolished therefore, they had turned out to be judged by their autonomy and relativity as well as linking them to man considering him a scale of everything whether it is good or bad. Socrates and his disciples Plato and Aristotle confronted those sophists and concluded that values are absolute, constant and based upon reason due to the impact of the natural religion in which they believed. Hence, the philosophy of idealism appeared in consequence. That philosophy viewed values as absolute and there should be a model before reality to fulfil. In contrast, followers of the materialist philosophy, the social theory and the

like thought that values are relative, variable and of no objective existence but rather subjective; vulnerable to influence by the individual or the society so that they would turn out to be behavioral values governing the individual. The investigation through which the researcher has tried to end up the conflict and the suspicion which various philosophies, sects and religions raised around the existence of an absolute objective foundation of values having perpetual constancy or rather being relative, autonomous and linked to the wishes of the individuals and groups. What were the premises and sources upon which those who believed in the relativity or constancy of values depended? Finally, what were the final outcomes of each statement?

Keywords: constancy of values- relativity- sophistry- objectivity- materialism- sources of values sources of values.

ومن هنا نشأت الفلسفة المثالية التي ترى أن القيم مطلقة، وأنه يجب أن يكون هناك مثال يسعى الواقع إلى تحقيقه، كما عبر عن ذلك هنتر ميد: بأنه لا يوجد إلا معيار واحد وقانون خلقي واحد هو الصحيح منذ الأزل، وهو الذي يسري على البشر أجمعين، هذا المعيار لا يسري على نحو عالمي شامل فحسب، بل إنه أيضاً مستقل عن العصر، وعن الموقع الجغرافي، والتقاليد الاجتماعية المألوفة، وكل شيء آخر، وليس هناك قانون أخلاقي للماضي وآخر للحاضر، ولا معيار للشرقي وآخر للغربي، وإنما الخير والحق شامل يسري على كل زمان ومكان. (١)

وعلى النقيض من ذلك ذهب أصحاب الفلسفة المادية، والنظرية الاجتماعية، ومن سار في ركبهم إلى أن القيم نسبية متغيرة، ليس لها وجود موضوعي، وإنما وجودها شخصي، قد يؤثر فيها الفرد أو المجتمع لتصبح قيماً سلوكية حاكمة للفرد.

ومصطلح القيم وإن ظهر استعماله في أعقاب الحرب العالمية الأولى من خلال رواد الفلسفة الوضعية، فإن المفهوم لم يكن بمنأى عن التداول الفلسفي والأخلاقي لدى السابقين، فقد تناولته الأفلاطونية تحت اسم المثل، وتناوله علماء الأصول تحت اسم المصلحة، وظل يناقش تحت مقولات الأخلاق وفلسفتها، مع اعتبار وضع الإنسان إزاء هذه القيم.

إشكالية البحث:

إن الاستشكال الذي نحاول أن نفك به الاشتباك والاشتباه الحاصل بين مختلف الفلسفات والطوائف والديانات يدور حول وجود أساس موضوعي مطلق للقيم، ووجود ثبات دائم لها، أم هي نسبية وذاتية تخضع لرغبات الأفراد والجماعات؟ وما المنطلقات والمصادر التي استند إليها القائلون بنسبية القيم أو ثباتها، وما النتائج المترتبة على كل قول منها؟

١ - الفلسفة أنواعها ومشاكلها، هنتر ميد، ترجمة فؤاد زكريا، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، ص ٢٦٥.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أسلك المنهج التحليلي النقدي في معالجة إشكالية البحث، وسبر أغوار قضاياها ومسائله.

خطة البحث:

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة ومعجم للأعلام وفهرس للمراجع وآخر للموضوعات.

أما المقدمة، ففيها أهمية البحث وإشكاليته وخطته.

وأما التمهيد: ففيه بيان لمفهوم القيم، وتصنيفها.

وأما الفصل الأول، فعنوانه مصادر ونتائج القول بنسبية القيم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مصادر ومنطلقات نسبية القيم عند القائلين بها.

المبحث الثاني: النتائج المترتبة على القول بنسبية القيم.

وأما الفصل الثاني: فعنوانه: مصادر ونتائج القول بثبات القيم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مصادر ومنطلقات ثبات القيم عند القائلين بها.

المبحث الثاني: النتائج المترتبة على القول بثبات القيم.

وأما الخاتمة ففيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

ثم أتبع ذلك بمعجم للأعلام، وفهرس للمراجع وآخر للموضوعات.

والله أرجو السداد والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. محمد نجدي حامد عبد الحميد

تمهيد

مفهوم القيم وتصنيفها

أولاً: مفهوم القيم:

يحسن بنا أن نُعرِّج على معنى القيم في لغتنا العربية، فالمادة (ق و م) في حقلها الدلالي تدور حول التقويم والاعتدال، والاستقامة وعدم الميل، والثبات والتحكم في الأمور، كما تعني: قيمة الشيء ومقداره.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْجَمُوا الْكِبْرَ بَاطِلًا لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَاتُوا كَمَا مَاتُوا﴾ وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة: ٦، فهي لفظة تعبر عن المعايير والموازن التي تضبط حركة الإنسان في الحياة؛ لتؤدي نتائجها المرجوة منها (١).

وقد وردت إشارات متعددة في القرآن الكريم تبين الترابط القائم بين القيم التي يوجه إليها القرآن، وبين الحاجات الإنسانية المقابلة لهذه القيم، حيث إن القيم تحتل المكانة الأولى في حياة الإنسان؛ لأنها تقرر حلقة الفكر وحلقة الإرادة، فحلقة الفكر تعمل على التفكير في مصادر حاجات الإنسان، وحلقة الإرادة تعمل على التوجه لمصدر هذه الحاجات.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم: ٣٧

فقد دعا إبراهيم ربه أن يرزقه إشباع الحاجات الجسدية والنفسية لتساعده على تجسيد القيم التي انتدبه الله للدعوة إليها (٢).

١ - يراجع: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ج ٣٣، ص ٣٠٦ // لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ج ١٢، ص ٤٩٦. // المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٤١٧.

٢ - يراجع: فلسفة التربية الإسلامية، دراسة مقارنة بالفلسفات المعاصرة، ماجد عرسان الكيلاني، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠٩م، ص ٤١٥.

القيم في الاصطلاح:

تعددت تعريفات القيم بحسب تعدد الرؤى والفلسفات التي تنظر إليها، ويمكننا أن نجتمعها في اتجاهين:

الاتجاه الأول، نظر إلى القيم باعتبارها صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال والأفعال والأخلاق، ولا تتغير بتغير الظروف والملابسات. (١)
أو كونها: صفة عقلية والتزاما وجدانيا يوجه فكر الإنسان واتجاهاته ومواقفه وسلوكه. (٢)

فتكون القيم بذلك معنى خلقيا يتطلع إليه الإنسان ويتوجه إليه بكليته، ويجتهد في الإتيان بأفعاله على مقتضاه. (٣)

والاتجاه الثاني عرف القيم بأنها: صفة شخصية يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء، طبقا للظروف والملابسات.

أو اعتبر أنها: الاهتمام للشيء أو استحسانه أو الميل إليه والرغبة فيه، كونها ذات طابع شخصي ذاتي، وليس موضوعيا. (٤)

وبالنظر إلى الاتجاهين نجد أن الاتجاه الأول عرف القيم بناء على القول بثباتها ودوامها وإطلاقيتها، فللقيم موضوع تدور حوله وثبات تعنى به وتتوجه إليه.

فبناء على ذلك يكون للقيم وجود مستقل وإن لم ندرك ذاتها كالجاذبية، بحيث يكون الشخص أو الفعل أو القول هدفا لإرادة صحيحة، وليس لرغبة ما

١- يراجع: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٥٨.

٢- استنباط القيم في حقل علمي، د فتحي ملكاوي، بحث منشور في كتاب القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: نادية مصطفى، سيف الدين عبد الفتاح، دار البشير، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١١م، ص ٢٢٥

٣- يراجع: تعددية القيم، ما مداها وما حدودها، طه عبد الرحمن، طبع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص ١٥

٤- يراجع: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص ١٥٨، // المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٢١٣.

بينما اعتمد أصحاب الاتجاه الثاني القول بنسبية القيم وتغيرها، وعدم موضوعيتها، لذا فهي خاضعة لظروف الأشخاص وملايسات حياتهم، فتدور معهم مصطلحتهم وجودا وعدما.

فتكون القيم قد اكتسبت وجودا ذاتيا يصلح أن يكون هدفا لرغبة موجود ما، لتضحي القيمة ذات طابع شخصي بناء على نظرة أصحاب هذا الاتجاه. (١)
بناء على ما سبق يكون القول بالثبات قصد الدوام والاستمرار وعدم قبول التغير لظرف وحال أو زمان ومكان، والقول بالنسبية على العكس من ذلك. (٢)

١ - خلصت إحدى الموسوعات الخاصة إلى أن القيم تعني " الصفات والفضائل المرغوبة اجتماعيا في فترة معينة، والمؤثرة في سلوك البشر وأفعالهم " وهذا التعريف يرد عليه القول بأن القيم نسبية متغيرة، وبين ما تتبناه الموسوعة من القول بثبات القيم، فيكون ثمة تناقض بين التعريف والمعرف، لذا فلا يتلفت إلى هذا التعريف. (يراجع: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، مرزوق بن صنيان بن تيبك وآخرون، دار رواح، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١ ص ٧٢).

٢- هناك من اعتبر القيم مطلقة ونسبية بناء على تعريفه للقيم بأنها صفات من شأنها تجعل الشيء يستحق التقدير إما لذاته أو لأمر خارج عنه، فإن استحققه لذاته كان مطلقا وإن استحققه لأمر خارج عنه كان إضافيا. (يراجع: القيم في الظاهرة الاجتماعية، طه العلواني، ص ٥٠).

على أنه ليس بالضرورة أن من يقول بأن القيم غاية تنشأ لذاتها أن يسلم بموضوعيتها ومطلقيتها، فقد يعتبرها بعض الفلاسفة غاية في ذاتها، مع اعتبار أن لكل ذات فردية غاياتها المطلقة الخاصة بها، فتعدد بتعدد الأفراد والذوات، كما أنه ليس بالضرورة من يقضي بكون وسيلة تفضي إلى غاية أن يسلم بذاتيتها ونسبيتها. (يراجع: نظرية القيم في الفكر المعاصر، صلاح قنصوة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، سنة ٢٠١٠م، ص ٥٥).

ويرى بعض الباحثين أن نسبية القيم يكون بسبب ارتباط القيمة في وجودها بوهم أو ظرف أو شخص أو وعي أو شيء، ومطلقيتها تكون بعدم ارتباطها في وجودها بسبب من الأسباب التي تجعل منها قيما نسبية، فتكون القيم مطلقة باعتبار ونسبية باعتبار آخر. ولعل هذا ناتج عن عدم اعتبار القيم غاية تنشأ لذاتها وعدم اعتبار وجود موضوعي للقيم. (يراجع: نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الربيع بن ميمون، الجزائر، ١٩٨٠، ص ١١٧).

ثانياً: تصنيف القيم:

لا يعتبر تصنيف القيم أمراً ذا بال إلا عند من اعتمد ثباتها وعدم نسبتها، حيث إنهم يفرقون بين نوعين من القيم:
الأول: قيم عليا مطلقة، تطلب لذاتها باعتبارها غاية لا وسيلة، وذلك كالسعادة، فهي قيمة مطلقة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا تنشأ لغيرها، وهي خير في ذاتها ولذاتها وبذاتها.

الثاني: قيم نسبية إضافية متغيرة توصل إلى غايات أخرى، فالمال لا تكون له قيمة إلا من حيث كونه وسيلة لكثير من الأمور المرغوب فيها في الحياة. (١)
وإن سلمنا بوجود نوعين من القيم فإن وصف الأولى بالقيم يكون على سبيل الحقيقة، والثانية على سبيل المجاز.

وقد صنفت القيم وفق ثلاثة منظورات، يتعلق الأول بمنشأ القيم، فردية، اجتماعية، أو ثقافية، ويتعلق الثاني بالحقول التي تنتمي إليها أشكال القيم، وهي: القيم الشخصية، وقيم الأشياء، والقيم الذاتية، وقيم النجاح والفعل والتفكير، وقيم الحالة الراهنة، والقيم القصدية، ويتعلق الثالث بوظائف القيم: أخلاقية، جمالية، أو نفعية، أو تصنف إلى قيم خارجية إضافية توصل إلى غاية، كالكرم والشجاعة، وقيم كامنة غائية منشودة لذاتها أصلاً، مستقلة عن أي غاية، وإن تحققت بها غايات اجتماعية، كالحرية والكرامة، واحترام الآخرين، والحكمة، والوحدة، والعدالة، ويسمى هذا النوع الأخير بالقيم والمثل العليا. (٢)

١ - يراجع: مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ص ١٤٠

٢ - يراجع: موسوعة القيم، ج ١، ص ٧٦، // نقد القيم مقاربات تخطيطية لمنهاج علمي جديد، عبد الله الفيافي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٣٩. المثل الأعلى يمثل حجر الزاوية ونقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، ومنه المبدأ وإليه المرجع والمصير، والمثل العليا التي تبنتها البشرية على ثلاثة أقسام:

ولا يخفى أن الباعث أو الأساس في تصنيف القيم إنما يخضع لتصورات وأيدولوجيات مختلفة، فبينما يرى الوضعيون أن القيمة تنشأ عن ممارسات الأفراد، ترى المدرسة الاجتماعية أن الجماعات أساس القيم، ويرى غيرهم أن اللذة هي المحرك الرئيس لتصنيف القيم، في حين أن الإسلام يرى أن الوحي هو الأساس والمصدر الرئيس في القيم وتصنيفها.

والسبب في اختلاف وتعدد تصنيفات القيم ناتج عن تصور القيمة في كل مذهب ومكانتها فيه، فبعض المذاهب تجعل القيمة امتداداً لموقفها من المعرفة والوجود، وتجعلها مذاهب أخرى أساساً وبداية لفلسفتها ومفتاحاً لفهمها كنيته وشيللر. (١)

إذا تقرر ذلك فإن البحث في ثبات القيم ونسبيتها إنما يعني بالقيم الأخلاقية، التي تنازعها أصحاب الفلسفات والديانات، واختلفوا في الحكم عليها، وهو مناط البحث والدراسة.

= الأول: المثل الأعلى الذي يستمد من الواقع، حيث إن المحتوى الداخلي للجماعة لم يستطع أن يتجاوز الواقع وانتزع منه مثله الأعلى، وذلك بسبب الألفة أو بسبب تسلط الفراعنة والطواغيت، ومصير هؤلاء إما أن يذوب في مثل أعلى أجنبي، وإما أن يبحث عن مثل أعلى جديد.

الثاني: المثل الأعلى المستمد من طموح الأمة وتطلعها إلى المستقبل، وفيه تخلق البشرية إلهها بيدها، وفقاً لتطلعاتها وآمالها، وهو ما يجعل الإنسان منتزعا لمثله الأعلى من تصور ذهني محدود، وحوله إلى مطلق لا محدود، ولكنها سرعان ما تتحول عنه بعد بيان محدوديته وزوال غرضه.

الثالث: المثل الأعلى الحقيقي المطلق، وهو الله عز وجل، حيث تقطع البشرية كل صلة بالألهة المزعومة، وتتجه إلى الحق سبحانه تستمد منه مرجعيتها وقيمتها، وتعود إلى في أفعالها وأحكامها، فتستقر رؤيتها وتنضج حضارتها، ولا ينقطع مددها. (يراجع: المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠١٣م، ص ١١٧ وما بعدها).

١- راجع: نظرية القيم في الفكر المعاصر، ص ٥٤.

الفصل الأول

مصادر ونتائج القول بنسبية القيم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مصادر ومنطلقات نسبية القيم عند القائلين بها.

المبحث الثاني: النتائج المترتبة على القول بنسبية القيم.

المبحث الأول

مصادر ومنطلقات نسبية القيم عند القائلين بها

يتجه العلم التجريبي أو الطبيعي بمختلف أنماطه وفلسفاته إلى القول بنسبية القيم وتغيرها، وإنكار كل ما يخالف ذلك، ويستهدف الإنسان من حيث كونه منشأ للقيم ومركزها ومرجعها الذي تنتهي إليه، ومن ثم فهي تصعد به من الواقع النسبي المحدود إلى إدراك المطلق.

هذا، وتتفق تلك الفلسفات والاتجاهات على أن الخبرة الحسية مصدر المعرفة والقيم؛ إذ كل شيء يبدأ من الطبيعة وينتهي إليها وليس وراءها شيء آخر، سواء كان هذا المصدر وعيا داخليا، أو وجدانا نفسيا، أو كان أمرا بيولوجيا اجتماعيا أو فرديا، فتكون الخبرة مصدرا للأحكام العلمية، كما أنها منشأ القيم ومرجعها. (١)

وليس بمستغرب أن ترى تلك الفلسفات في كل نشاط إنساني حادثا طبيعيا يجري مجرى الوقائع الخاضعة لحتمية القانون الطبيعي، ويكون لها قيمة تمثل الغاية القصوى لهذا النشاط، وذلك كمذهب اللذة والمنفعة العامة، أو المادية التاريخية عند ماركس، أو ترى أن القيمة بها لديها من فاعلية تصدر عن فاعل طبيعي، سواء كانت ميوله اجتماعية أو نفسية - سيكولوجية -، وبقدر ميوله ووجدانه ونزوعه إلى ذلك الشيء تكون قيمته. (٢)

١ - يكمن الخلاف بين أصحاب هذه الاتجاهات في نوع أو مصدر القيم، بحيث تؤثر في الإنسان، هل هي القوانين البيولوجية (الحيوية) أو النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية مع اتفاقهم على أن القيمة لا تقبل الحكم عليها بالصدق أو الكذب إلا على أساس من الأدلة التجريبية. (يراجع: نظرية القيم، قنصوة، ص ٦٥).

٢ - يراجع: نظرية القيم في الفكر المعاصر، صلاح قنصوة، ص ٦٠، ويلحظ أن الآراء والتوجهات داخل هذا الاتجاه بلغت حدا كبيرا من التنوع والتعارض الذي لا يمكن رأب صدعه، إلى حد يجعل صاحبه من أصحاب النظريات المناهضة، وما كان هذا الخلط والعبث إلا نتاجا طبيعيا لنظرتهم إلى الإنسان بما له من فاعلية تسعى إلى قيمة ما، بغض النظر عن تلك الفاعلية أو تلك الغاية، ومع ظهور هذا الاختلاف فيجمعهم القول بأن الكون بأجزائه ذو طبيعة واحدة كبرى، تسري عليها قوانين واحدة، وتدرس بطريقة واحدة في إطار الطبيعة فقط، وليس ما وراءها.

ومصادر هذه الفلسفات كما يلي:

أولاً: المذهب التجريبي:

ينطلق ذلك المذهب من مبدأ أن الإنسان يولد وهو لا يعرف شيئاً، " فالإنسان يولد صفحة بيضاء" كما قال جون لوك.. فالعقل البشري يولد خالياً من أي فكر، والذي يمد الذهن بهذا الفكر إنما هو التجربة، والتي تؤتي ثمارها نتيجة امتزاج الحواس بالعقل، امتزاجاً يربط بين الانطباعات الحسية والأحاسيس الوجدانية التي تعتمد على العقل. (١)

وإذا كان الإنسان بلا أفكار فطرية، فإن التجربة اليومية تعمل عملها وتقوم بنشاطها لتخط ما هو صالح وتنفي الطالح، عندئذ تصبح الأفعال الصالحة خيرة، والأفعال الطالحة شريرة، وهكذا تكون التجربة اليومية مصدر القيم الأخلاقية، على حد تعبير هيوم والذي تقوم فلسفته على أسس الطبيعة البشرية، والإنسان مصدر كل تفكير فيها، سواء كان هذا التفكير علمياً أو دينياً أو أخلاقياً، ولا يستند فقط إلى الخبرة الحسية فقط التي اعتمد عليها أصحابه من دعاة التجريب، بل إنه أضاف إليها بعداً آخر وهو الأساس السيكولوجي، فمردّد كل خلق وقيمة عند هيوم الانطباعات النفسية الحسية، مع تمسكه بالتجربة كمصدر وحيد نبرر به الاعتقادات في القوانين الكلية.

١ - يراجع: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص ١٤٥.
ويعتبر جون لوك أن اللذة جوهر الخير، والألم جوهر الشر، وهما الدافعان لسلوك الإنسان، الذي يقترب من الكمال أو يبتعد عنه بمقدار مطابقته للقانون الأخلاقي، الي قرره الله تعالى، ويقع في تناقض واضح، إذ كيف للقواعد الأخلاقية أن تكون من وضع الله، وفي نفس الوقت ليست مفضورة في العقل البشري، بل تدرك بالتجربة مع أنها قانون الله.

وربما كان هذا الاتجاه دافعا إلى اهتمام الفلاسفة بعلم النفس، والاعتداد عليه في رد الظواهر المختلفة إليه، وكان ذلك مصدرا لفكرة رد القيم إلى الغرائز الجنسية عند فرويد أو إلى الوجدان النفسي عند القائلين به. (١)

ومع تراكم الخبرات واتفاق الأفراد داخل البنية المجتمعية تصبح الأفعال الصالحة مقدسة لتكون قيما أخلاقية ثم تتوارثها الأجيال... وهكذا فإن القيم الأخلاقية تابعة لتطور طويل مرّ به الجنس البشري، لتكون الطبيعة البشرية هي التي توجه السلوك الأخلاقي، حيث إن الفطرة - كما عبر بنتام - هي التي وضعت الإنسان تحت سيطرة سيدين مطلقين، هما اللذة والألم، ونحن مدينون لهما بكل أفكارنا، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا في الحياة". (٢)

وبتشديد أركان هذا المذهب وتقوية دعائمه أضحي مهيمنا ومسيطرًا على كل المذاهب التي أتت بعده، فهي منه بمثابة الأبناء والحفدة، وذلك ما يتضح من سبر أغوار الأفكار والفلسفات التي اعتمدت التجربة مصدرا للقيم، وعالجتها بالنظر إلى الإنسان المبدع الموجه لكل شيء حوله، بعيدا عن مصدر أعلى يعود إليه، ويستمد منه قيمه وأخلاقه.

- ١ - يراجع: الاستقراء والمنهج العلمي، محمود فهمي زيدان، دار الجامعات المصرية، ١٩٩٧، ص ١١٠، // تحقيق في الذهن البشري، ديفيد هيوم، ترجمة محمد محبوب، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٥٩. ويلحظ أن هيوم قد اعتمد على العاطفة الأخلاقية في رد القيم إليها، حيث إن الأخلاق لا يمكن أن تقوم على دعامة العقل وحده؛ لأنها ليست حكما وتقديرا فقط، بل هي عمل وتنفيذ، والتنفيذ لا بد له من دافع العاطفة، فتقوم عنده علاقة تكاملية بين العقل والعاطفة، أو بين الواقع والقيمة، فمن خلال العقل يتأسس التمييز بين العاطفة الأخلاقية ومجرد اللذة. (يراجع: دروس في الفلسفة، يوسف كرم، إبراهيم مدكور، عالم الآداب، بيروت، ٢٠١٦م، ص ٤٣٥).
- ٢ - يراجع: الفلسفة أنواعها ومشاكلها، ص ٢٨٥. // كتاب الأخلاق، أحمد أمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٣١م، ص ٥٩.

ثانياً: المذهب الماركسي:

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن القيم الأخلاقية ليست مطلقة، بل هي نسبية ومتغيرة؛ لأنها تابعة للشروط الاقتصادية التي تتحكم في كل شيء (١).

فالأخلاق - في نظر إنجلز - تبين وضعية بنية العلاقات الاقتصادية وعلاقتها الإنتاجية في المجتمع، وصراع الطبقات، حيث إن قيم الصبر والشفقة والتعاون.. قيم ابتكرها الأغنياء لتمكنهم من ثروات الفقراء واستغلالهم.

ولقد أقام ماركس نظريته في القيم على أسس اقتصادية، تتمثل في علاقة القيمة بالعمل (٢)، فلا قيمة لشيء إلا إذا بذل فيه مجهود إنساني، وتكون قيمته بمقدار العمل الذي يتطلبه إنتاجه، ف"نقول عن شيء أنه يستحق يومين من العمل، أو ثلاث ساعات من العمل، وإذا كان الشيء هو عمل رجل مختص فإننا ندخل في اعتبارنا تقدير الزمن الذي أنفقه في التدريب على العمل الذي أجاده وتخصص فيه". (٣)

١ - تطورت نظرية ربط القيم بالإنتاج الاقتصادي عند ماركس، فهو الذي وضع صورتها النهائية، حيث طورها عن نظرية العمل التي تعني: أن القيمة الطبيعية للسلعة تتوقف على مقدار ما بذل فيها من عمل، فالعمل هو مصدر القيم ومقياسها في آن واحد، بيد أن العمل عند ماركس أحد عوامل الإنتاج، وليس العامل الوحيد في تعيين القيمة.

٢ - لقد ظن ماركس أن العقيدة والفكر لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها، وهو ما يعني: أن الإنسان ينزل عن عرش كرامته إلى مستوى من الحيوانية لا يليق بهذا المخلوق المكرم، وهو في حد ذاته تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر.

وبيان ذلك: أنه لكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح لا بد أن يقنعوا أنفسهم بأن سعادتهم تكمن في هذا النوع من الحياة، مما يبرهن على أننا مقودون أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة، تتأثر بها الجوانب المختلفة في حياة الإنسان، ومنها الجانب الاقتصادي؛ لأن الإنسان يتأثر بها. (يراجع: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ١٥٢).

٣ - الأجور والأسعار والأرباح، كارل ماركس، دار التقدم، موسكو، الطبعة الثانية، بدون سنة طبع، ص ٣٨.

لقد شيد ماركس نظريته وأقام بنيانها على أساس التأليف والتوفيق بين منهج هيغل الجدلي (١)، ومادية فويرباخ " ١٨٧٢ م" (٢)، ومذاهب علماء الاجتماع والاقتصاد الفرنسيين، وجعل منها تصورا للعالم يشبه الدين في تأثيره على العقول.

فالماركسية وإن أخذت بطرف من منهج هيغل في بناء قانون حركة الأفكار إلا أنها خالفتها حين اعتبرت المادة هي الحقيقة المطلقة أو الواقع الوحيد، وما الفكر إلا نتيجة من نتائج تطورها، وهي المبدأ الأسمى الذي ينبثق منه كل شيء، وليس كما زعم هيغل أن المادة نتيجة لتطور الفكرة. (٣)

ومن هنا يكون "لكل سلعة قيمة استعمالية وقيمة تبادلية، وتقوم قيمة الاستعمال لشيء ما على نفعه لمن يملكه، ولا ترجع إلى ندرته، ولا إلى المواد التي تكونه". (٤)

وانطلاقا من فكرة القيمة الفائضة التي أسس لها ماركس في نظريته الاقتصادية، وانتهاء إلى فكرة الاغتراب التي يغترب فيها الإنسان عن نفسه نظريا وعمليا في ميادين الحياة بواسطة القيم التي يؤمن بها، أنكر ماركس فكرة الدين وما يترتب عليها إذ إنها في نظره هي الفعل الذي يفرغ الإنسان من نفسه، ويحوّله

١ - يرى هيغل أن العالم نتاج تطور جدلي فكري، وأن الفكر محرك للمادة، والإنسان موضوع في إطار تاريخي للوجود الإنساني، وتقوم فلسفته على أن الدين هو موضوع الوعي الإنساني، وأن الله هو بداية وغاية الكل.

٢ - يرى فيورباخ أن العالم ليس نتاج تطور جدلي فكري محض، بل محركه هو المادة، والإنسان نتاج المادة، وصراعه مع الوجود هو الذي يدفعه إلى تطوير فكره، كما يرى أن الإنسان هو قاعدة الأخلاق التي هي أساس أفعاله.

٣ - يراجع: نظرية القيم، ميمون، ص ١٩٠ وما بعدها.

٤ - كارل ماركس أو فكر العالم: جاك اتالي، ترجمة: محمد صبح، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٢٧٣.

إلى مسخ ليس له دور غير خدمة غيره، لذا فإن الإنسانية والإلهية نقيضان لا يجتمعان عنده. (١)

ومن هنا فإذا كان ماركس يرفض الدين، فإنه يرفض القيم القائمة عليه، ويحصر القيم في تلك التي تفرزها العلاقات أو الحالة الاقتصادية التي يعيشها مجتمع ما، لذا فهي تعبر عن مستوى الرقى الذي بلغه المجتمع المتمسك بها، فيكون واقع الإنسان وأحوال مجتمعه هي التي تمل عليه قيمه، وهو ما يجب على الإنسان أن يتجاوزه ويتجاوز معه كل الأفكار التي تدعو إليه، ليخلق قيمه الخاصة، ويحقق نموه الكلي الذي يتوجه إليه.

وبذلك يكون النظام الاقتصادي مصدرا للقيم، وما الدين والأخلاق والفن وغيرها إلا آثارا لهذا النظام الاقتصادي، وعلامات دالة عليه وتابعة له، وهو ما يعنى وجوب التخلص من القيم التي تخدم الطبقات السائدة، والتحلل بالقيم التي تجسد الإنسان الكلي، أو الشيوعي، وهو ما يفيد أنه إذا تغيرت علاقات الإنسان وظروفه الاقتصادية تغيرت معها القيم الأخلاقية... (٢).

١ - يراجع: نظرية القيم ميمون، ص ١٩٨.

٢ - انتهت الماركسية إلى أنه إذا كانت الأفكار تعكس علاقات إنتاجية محددة يمكن تجاوزها، فإن الإصرار على استقلال هذه الأفكار وثباتها الذاتي يدعو إلى تثبيت العلاقات الإنتاجية القائمة، التي ينبغي تغييرها؛ لذا انتقد ماركس هذه الأيدلوجية وكشف عن العلاقات الواقعية التي تربط بين عالم الأفكار والأساس الاقتصادي، فعالم الأفكار هو العالم المادي نفسه انتقل إلى الفكر الإنساني وترجم إليه، ومن هنا فإن القيم عند الماركسية تنشأ بمولد المجتمع الإنساني، وهي ليست موضوعات ثابتة لا تتحول، بل تتغير بتطور المجتمع تحت تأثير تغييرات الإنتاج، وهو ما يعني: أن تكون أخلاق النظام الاقتصادي أفضل الأخلاقيات لتتجلى الفضيلة الطبيعية للإنسان. (يراجع: نظرية القيم، قنصوة، ص ١٠٠ وما بعدها).

ثالثاً: المذهب الاجتماعي:

يرى أنصار المذهب الاجتماعي أن القيم الأخلاقية ليست فطرية وليست فردية، بل هي نابعة من الوسط الاجتماعي للفرد، فالمجتمع حقيقةً تتجاوز إرادة الأفراد، ويُمارس قيمه وأخلاقه قهراً، إلى أن يصبح ضمير الفرد انعكاساً لضمير الجماعة، وعندئذ يستحسن الفرد الأفعال التي يستحسنها المجتمع، ويستتبع الأفعال التي يستتبعها المجتمع.

وإذا كان الإنسان مديناً للمجتمع الذي كون إنسانيته العليا ورفع من شأنها لتتجاوز الواقع إلى حالة أوعى وأرفع مما كانت عليه، فإنه لا يستطيع أن يرفض تلك الحياة وذلك المجتمع الذي أمدّه بكل ما يحتاج إليه؛ لأن هذا الرفض وذلك الإلغاء يحمل في طياته زوال كل شيء يميز الإنسان عن غيره من الحيوانات، ومن هنا أصبح للمجتمع تسلط على حياة الأفراد فيقرر قيمها ويجرر أخلاقها.

ولعل الدافع لدعاة المذهب الاجتماعي أنه بعد رفض كل ما من شأنه أن يذكر الناس بمرجعية الدين، أو بوجود البعد الغيبي والمصدر الأعلى في تسيير وتقعيد قيمهم؛ فسروا كون المجتمع مصدر القيم قياساً على تفسير الظواهر الحيوية المبنية على التجربة، فكما أننا لا نستطيع أن نفسر الظواهر بالجزئيات التي تتركب منها الخلية الحية، فلا نستطيع كذلك أن نفسر الظواهر الاجتماعية بالعناصر التي تكون المجتمع، والتي هي الأخلاق الفردية، لذا فإنه يجب علينا أن نلتجئ إلى الروح الجماعية لتفسيرها، إذ إن الجماعة تفكر وتعمل بكيفية غير الكيفية التي تعمل بها الأفراد، وبمقدورها أن تؤثر على أفرادها وتكيف أفكارهم تبعاً لما تقضي به قوانينها. (١)

تلك جذور شجرة القيم التي أسس عليها علماء الاجتماع مذهبهم، والتي يزعمون أنها كوّنت موضوعاً طيباً مرغوباً فيه، وخيراً أسمى نسعى إليه، فتنمو في إطار "سلطة أخلاقية هي مصدر الإلزام، تأمرنا وتفرض علينا الواجبات،

١ - يراجع: نظرية القيم، ميمون، ص ٢١١ وما بعدها.

والمجتمع هو الوحدة التي تجمع بين الطابعين المميزين للظاهرة الأخلاقية من حيث هي إلزام مفروض، وخير مطلوب من ناحية أخرى". (١)

ومن هنا قرروا أن المجتمع مصدر القيم، "وهو ما يعني أن القيمة التي تتضمن الإلزام والقابلية للغربة فيها، والتي يجب أن يكون لها شيء من الموضوعية حتى يمكننا التطلع إليها، فلا يوجد لها مصدر إلا المجتمع، فالمجتمع هو الذي يفرضها، وهو الذي نتطلع إليه عندما نتعلق بها...، وهو الذي يقوم مقام الإله في الديانات الساموية أو الكائن العظيم في النحل الوضعية". (٢)

وإن أفضل ما يعبر عن النسبية واعتماد القيم على المجتمع، كلمات وايتهد في كتابه مغامرات الأفكار، حيث يقول: وتفاصيل هذه المقاييس الخلقية تتعلق بالظروف الاجتماعية الخاصة بالمحيط المرافق للحياة...، كما أن معنى المقاييس متغير وغامض، فقد تكون بعض القيم صالحة لبعض المجتمعات دون البعض الآخر...، ومن هنا فإن القول بوجود مفاهيم تنظيمية معينة مضبوطة ضبطاً كافياً لإيضاح تفاصيل السلوك لكل الكائنات العاقلة على الأرض، قول يستحق الإهمال. (٣)

لقد استقر إذا في وعى دور كاييم وأتباعه أن المجتمع هو الذي يفسر لنا ظهور الأخلاق، حيث إنه مصدر للدين؛ لذا فهو الذي ينتج الأخلاق ويفرضها علينا،

١ - الأخلاق والمجتمع، زكريا إبراهيم، ص ٧٦.

٢ - نظرية القيم، ميمون ص ٢١٤.

٣ - مغامرات الأفكار عرض فلسفي رائع للأفكار والحضارات، وايتهد، ترجمة: أنيس زكي حسن، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٠م. ص ٤٣٩، وربما تكون هذه وجهة نظر (ليفى بريل) الذى وجه عنايته نحو القيم الخلقية وحدها، رافضا أن تكون الأخلاق الفلسفية أخلاقاً نظرية؛ إذ هى معيارية فى جوهرها، ونظرية بصفة عرضية، ومن هنا فإن الظواهر الخلقية ظواهر اجتماعية، وأنها تتغير بتغيرها، كما أنها تخضع لقوانين مثلها. (يراجع: نظرية القيم، قنصوة، ص ٨٣).

وهكذا يتبين أن الباعث على القيم ليس ذلك المجتمع، ولا أحد أفرادها، وإنما يمتاز الإنسان عن سائر الكائنات بأن حركاته وتصرفاته يتولى قيادتها معنى إنساني روحاني، اسمه الفكرة والعقيدة... فالإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات وقيمها بكافية في تحديد مصير القيم (١).

رابعاً: مذهب التحليل النفسي:

اتفق فلاسفة هذا المذهب على أن مصدر القيم هو الوجدان النفسي، بما يختلجه من رغبات ومشاعر، فليس "ثمة قيمة إلا ما كان يرضى رغبة، أو يثير انفعالا، أو يتجسد دافعا". (٢)

يرى فرويد أحد رواد هذا المذهب أن الغريزة الجنسية - الليبيدو - مصدر القيم، حيث يسعى إلى إثبات أنها الدافع للقيم التي يتحلى بها الإنسان، والمميزة لمراحل النمو المبكرة، وهي التي تضيف إليه السلطة في سلوكه الخاص؛ حيث إنها بمثابة الناقد الخلفي الأعلى للذات، كما أنها مصدر أفعال التقويم لديه. (٣)

- ١ - يراجع: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١٥١.
- ٢ - نظرية القيم، قنصوة، ص ٧٣. وهناك من ينكر استخلاص القيمة من الحوادث التجريبية الفردية، ويقف بها عند الوجدان النفسي، ولا يعدوها إلى ما يسمو به على الكمال الشخصي، كـ (هانس درايش) الذي يرى أن هناك كمالاً للنوع يسمو على الكمال الشخصي، حيث إن القيمة ذات طابع غائي، تفضي إلى تطور البشرية وترقيتها، ولا تغفل وقوع التضارب بين رواد هذه المدرسة، فبعضهم يعترف بوجود قيم كلية مثلما توجد حقائق كلية، وإن كان ينفي إمكان معرفة ما يقع وراء التجربة النفسية كـ (ماينونج)، وبعضهم يجمع بين شتى المذاهب في تحديد مصدر القيم، فـ (اشبرانجر) يرى أن هناك ستة أبعاد للقيم الإنسانية: النظرية، الجمالية، الاقتصادية، الدينية، الاجتماعية، السياسية. (يراجع: الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، نجيب إسكندر وآخرون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص ٤٩٧ وما بعدها، // نظرية القيم، قنصوة، ص ٧٢ وما بعدها).
- ٣ - يراجع: أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي، دار النهضة - القاهرة، ١٩٥٢، ص ١٠٦.

وعليه فتكون الليبدو منبعاً لكل الميول الأخرى، فالميول الاجتماعية والدينية والجمالية ناتجة عنها.

وهذا يعنى أن مصدر القيم إنسانى محض، وهى ناتجة عن المأساة التى كان سببها قتل الأب البدائى، لذا فهى ليست ذات ماهية دينية من جهة، ولا يمكننا أن نمنحها مصدراً نفسياً أو عقلياً من جهة أخرى (١)، وإنما الوجدانيات التى يجدها الإنسان من نفسه هى مصدر القيم، بناء على التجارب والملاحظات النفسية للأطفال، فتتكون الأخلاق من خلال علاقات الشخص بأبويه، لا عن أصل متعال عنه.

ويمكن أن نلاحظ وجود ثمة تقارب بين المذهب الماركسى ومدرسة فرويد، فإنه "على الرغم من تعارضهما إلا أنهما يتفقان على اعتبار أن مصدر القيم هو الأنا الدنيا، أى ال "هو" أو الليبدو فى نظر فرويد، والبنية التحتية فى نظر ماركس، وهذا ينبوع القيمى يلقى رقابة كبت وزجر يتحول بالتصعيد إلى إسقاط فى قيم مثلى هى قيم الأنا العليا عند فرويد، ويتحول فى رأى ماركس بالثورة والصراع الطبقي إلى قيمة وحيدة عليها هى المطلب الشيوعى الأخير للقضاء على الانحلال والاغتراب، أى: لتحرير العامل والمجتمع والأرض". (٢)

١ - يراجع: نظرية القيم، ميمون، ص ١٥٨، وقد وجهت إلى نظرية فرويد عدة انتقادات، حيث إن تفسيره لكل شيء بالغريزة الجنسية لا يعد أمراً مقبولاً فى الأوساط العلمية، كما أن المريض الذى تصوره فرويد ليس هو الذى كبت ميوله التى تنافى متطلبات المجتمع، بل هو الإنسان الذى لم يكبت هذه الميول بالكلية، أو كبتها ناقصاً، فتؤثر فى اتزان شخصيته، كما أن تحليل فرويد ليس سوى لنفس واحدة من النفوس الموجودة فى الحياة، فلم يستقص مثلاً النفس اللوامة ولا النفس المطمئنة، وإنما اهتم بالحديث عن النفس الأمانة بالسوء، فهو وإن أصاب فى تشخيص نفس واحدة إلا أنه أخطأ فى علاجها وتغافل عن النفوس الأخرى...

٢ - العمدة فى فلسفة القيم، عادل العوا، طلاس للترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٦٣٤، ٦٤٤.

ويمكن لنا أن نقول أيضا بأن نظرية ماركس قد انتهت عند وليم جيمس رائد البراجماتية في صورة أرباح التجار وتحقيق مصالح أرباب المال، أو الصلاحية لإيجاد السعادة على حد تعبيره، فما من هدف للحياة إلا العمل المنتج، فعلى الإنسان أن يسخر طاقاته ويشحذ همته فيما يحقق هذا الهدف، وألا ينشغل بما وراء ذلك من البحث في طبائع الأشياء وحقائق الموجودات إلا ما حقق عملا منتجا... وبناء عليه فمن المستحيل إيجاد فلسفة أخلاقية ووضع قواعد نظرية لها قبل وجود التجارب الفعلية، وهو ما يعنى أنه لن يكون هناك حق مطلق في الأحكام الخلقية، كما أنه ليس هناك حق مطلق في المسائل الطبيعية، اللهم إلا إذا انقرض النوع الإنساني وانتهت أفعاله، ذلك أن كلاً منا يساهم في تكوين مدلول الفلسفة الأخلاقية. (١)

ومن هنا اعتبر جيمس النجاح القيمة الأولى ومصدر القيم، وهذا النجاح يختبر صدقه بالتجربة في واقع الناس مع مراعاة الجانب الاجتماعي في تقدير الحقيقة التي يحصل عليها المجتمع، لذا فإن القيم حادث إنساني عملي لا علاقة له بالمثالية القبلية. (٢)

وما سبق بمثابة مقدمة لظهور المذهب البرجماتي الذي عالج الظاهرة الدينية، ومحاولة إخضاع الدين للنفعية العملية بناء على الوظيفة التي يؤديها، والفائدة التي تعود على المؤمن من ورائها.

١ - يراجع: إرادة الاعتقاد، وليم جيمس، ترجمة: محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦م، ص ٧٩.
٢ - يراجع: إرادة الاعتقاد، ص ٩٣ وما بعدها // العمدة في فلسفة القيم، ص ٦٤١ وما بعدها.

الخير أو الشر على السواء، لا أن يترجح وجودها إلى أحد طرفيها بدون مرجح، إذن فالحياة تحتضن الخير والشر، وهو ما يحيل التشاؤم إلى تفاؤل. (١)

أما نظرية نيتشه فإنها تعد قلبا للقيم وإعادة لتقييمها (٢)، فجعلت الإنسان وإرادته للقوة مصدر القيم، فهو الذي يضمن القيمة ومعانيها على الأشياء؛ حيث إن الوجود عنده هو الحياة، ولا تكون الحياة إلا بالإرادة، ولا تعتبر إي إرادة إلا إرادة القوة - حسبها فصل في أخلاق السادة وأخلاق العبيد -.

ومن هنا أراد نيتشه أن يتخلص من هذه الأخلاق التي تغيّر إرادة الإنسان، فأنكر كل مصدر يقف حجر عثرة أمام تحقيق تلك الإرادة، سواء كان مصدرا فلسفيا أو أخلاقيا أو دينيا، فزعم أن العقل - وهو الصنم الذي تستند الفلسفة إليه - لا حاجة للإنسان فيه؛ لأنه يتنافى مع حركية الوجود وصيرورته.

كما اعتبر أن رد القيم إلى مصدر أعلى أو إلى عالم المثل يبرر غلبة قيم العبيد وانتشارها على قيم السادة، وهو ما ينبغي أن تتخلص منه، وعليه فإن الطبيعة الإنسانية بما فيها من غرائز حب السيطرة وإرادة القوة هي المحرك والمصدر الرئيسي للقيم دون غيرها؛ ذلك أنها تملك القدرة على خلق ما هو أرفع منها،

١ - يراجع: الفرد في فلسفة شوبنهاور، فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٩٣، ويظهر أن الأخلاق عند شوبنهاور تقوم على أساس ميتافيزيقي، وهو الشفقة، وفضيلة الشفقة تقوم على المعرفة الحدسية، وبذلك يتابع كانط في أن الأخلاق لا تقوم على العقل الخالص، بل على العقل العملي، فتكون المعرفة المبنية على تصورات عاجزة عن إدراك الماهية الحقيقية للأخلاق، ويكون الفعل الأخلاقي فعلا لا عقليا، لا بمعنى أنه مصاد للعقل وإنما بمعنى أنه غير العقل. (يراجع: المرجع السابق ص ١٠٤).

٢ - وقد اعتبر بعض الباحثين فلسفة نيتشه أصلا لمواقف الوجودية من القيم، وهي الحجاب الذي نفتش من ورائه عن فلسفة نيتشه. (يراجع: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م، ص ٣١٥).

وإبداع ما يسمو فوقها، فعليها أن تخلق بدون خوف ولا تقييد أو تقليد لكل ما من شأنه أن يغفل حركة الإنسان وحرية في هذا الكون. (١)

ويتضح لنا أن نيتشه قد تجاوز نظرية شوبنهاور في إرادة الحياة وكونها مصدرا للقيم، واعتبرها إرادة قوة تنزع إلى السيادة والنمو. (٢)

سادسا: الوجودية:

غدت تلك الإرادة حرة مطلقة للإنسان يبدع بها قيمه ويجرك وسائلها في سبيل تحقيقها؛ ليخلق وجودا ذاتيا لنفسه، إذ لولاها لبطلت فائدة وجوده - حسبما ترى الفلسفة الوجودية - (٣)، التي تؤمن بأن الإنسان هو الخالق الوحيد لمعنى القيم في العالم، وهو متروك لذاته ليخلق ويحقق في عالمه ما يستطيع من القيم، فهو وإن كان لا يخلق وجوده العام، إلا أنه يستمد وجوده الخاص منه ليحقق آماله وقيمه الفردية التي تتطلع إلى الحديث عن لون من المسؤولية الجماعية.

١ - يراجع: نيتشه، عبد الرحمن بدوي، دار النهضة القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٨٦ وما بعدها،
// فلسفة الأخلاق، ص ٣١٣، // نظرية القيم، قنصوة ص ١٥٨.

٢ - وبذلك يكون نيتشه قد تجاوز بنظريته تلك رؤية دارون الذي اعتبر الحياة تنازعا على البقاء.

٣- يراجع: الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهرية، جان بول سارتر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ٥٤١. لا تعترف الوجودية بكون القيم خاضعة لحتمية القوانين الطبيعية رغم أنها نسبية وذاتية، حيث إن القيم عندهم لا تستند إلى فكرة سابقة أو قوة متعالية، وهناك من يرفض وجود قيم في الفلسفة الوجودية، لأنها تتنافى معها، ولا يمكن قيامها؛ لأن الوجودية قائمة على أساس فكرة الذات المنفردة، وهو ما يتنافى مع التقويم الموضوعي للقيم، وإذا كان القول بالأخلاق يفقدنا ذواتنا، والقول بالأخلاق مخاطرة بوجودنا، فإن الوجودية تفضل أن تحاطر بالوجود على أن تفقد الذات. (يراجع: هل يمكن قيام أخلاق وجودية، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٢٩، // الزمان الوجودي، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م، ص ٣٤ وما بعدها، // نظرية القيم، قنصوة، ص ١٥١).

فحرية الفرد هي التي تلزمه بقيم معينة أو نظام بعينه، وهي التي تضيف على الوجود ما يجعل منه وجوداً له معنى، وهي التي تضع قواعدها، وتبدع قيمها، حيث يعبر سارتر عن ذلك بقوله: "لقد ذابت الحرية على بعتة وأسكرتني، إنه لا يوجد شيء، لا إله، ولا خير، ولا شر، ولا أحد يأمرني، فأنا لن أعود للخضوع إلى قانونك؛ لأنه محكوم عليّ ألا يكون لي غير قانوني". (١)

وإذا كان وجود الإنسان سابقاً على الماهية، فإن القيم خيرها وشرها من وضع الإنسان لذاته، وبحريته التي قررها سلفاً، وهي لا تقبل المراجعة من أية جهة أخرى، بيد أنه يستطيع أن يراجع هو نفسه فيؤمن بقيم جديدة مناقضة للتي آمن بها من قبل، أو يضيف إليها ما يجعلها أكثر نفعاً في حياته. (٢)

وتعتنق الوجودية هذا الرأي انطلاقاً من تبنيها فكرة عدم وجود إله، فإنهم لا يقولون بوجود القيم التي كانت نصير المؤمنين بعد أن ألغيت فكرة وجود الله، كما يزعم الراديكاليون، بل إنهم يقولون "إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة قبلية...؛ لأننا نصير حيال وجود إنساني بحث لا دخل فيه لوجود الله، أو لقيم مصدرها الله". (٣)

١ - نظرية القيم، ميمون، ص ١٧٧

٢ - يراجع: الوجودية مذهب إنساني: جان بول سارتر، ترجمة عبد المنعم الحفني، الدار المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م، ص ١٤. ويلحظ أن هذا الفكر الوجودي متمرد على كل شيء حوله، فهو يبيث القلق والتشاؤم ويخلق حالة من العيشة والعدمية في نفوس أتباعه، وأن الإنسان ولد ليموت، وأنه موجود في الكون بلا عناية ولا رحمة، وأن آلامه لا معنى لها، فصار يتنكر لكل شيء ويتمرد على كل شيء، لتتولد فلسفتهم إلى نوع من العدمية الكاملة، فأنكروا جميع القيم ورفضوا كل ما اتفق عليه أنه ذو قيمة، وأنهم ليسوا ملزمين بتقديم أي شيء بناءً على محل ما هدموه. (يراجع: الوجودية، جون ماكوري، دار الشرق للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٣٥).

٣ - الوجودية، سارتر، ص ٢٥

ولا تتقاطع الوجودية مع المذهب التجريبي، بل إنها يشتركان في اتخاذ "موقف مشترك ضد العقلانية النظرية، فلا يثقون في جميع المحاولات التي تبذل لإقامة فلسفة قبلية، أو تشييد مذاهب شمولية، وإنما تكون المعرفة بناء على أساس من المعطيات الحسية والعاطفية التي يمكن الحصول عليها". (١)

ويفترقان في كون المذهب التجريبي يعتمد التجربة الحسية أساساً لفلسفاته ومبادئه وقيمه، بينما تخضع الوجودية للتجربة الذاتية أو التجربة الداخلية، وتعتبرها الأساس الذي تنطلق منه وتبني عليه معتقداتها.

سابعاً: البراجماتية:

تأتي البراجماتية لتؤكد ما سبق من نظريات تدعى نسبية القيم، لتصل إلى غاياتها المنشودة: الأمور بنتائجها، والغاية تبرر الوسيلة، والمنفعة مصدر القيم. (٢)

وقد تواطأ على جعل اللذة والمنفعة مصدرًا للقيم (٣) بعض الفلاسفة القدماء من لدن بروتاغوراس وأبيقور ومن نهج سبيلهما من المعاصرين حتى

١ - الوجودية: جون ماكوري، ص ٢٧

٢ - تنتهي المذاهب المتمية إلى مذهب اللذة الأخلاقي إلى فئتين: مذهب اللذة الفردي أو الأناني، ومذهب اللذة العامة أو مذهب المنفعة، فالمذهب الأناني يمثل وجهة النظر القديمة التي تقيم اللذة قياساً على الفاعل، ويمثله أرسطو، والمذهب النفعي يقيم بالقياس على قيمته لجميع الأشخاص الذين يتأثرون به ويمثله قديماً أبيقور وحديثاً المدرسة البرجماتية. وسنبين ذلك في ثنايا البحث.

٣ - يستند مذهب اللذة إلى الميل الحاصل عند كل الكائنات إلى اللذة والنفور عن الألم، وقد ذهب السفسطائيون من كاليكيس إلى أن خير الإنسان يتمثل في اللذة، كما ذهب أرسطو إلى أنه على المرء أن يسعى إلى اللذة أينما وجدت ويختارها، والمقصود بها اللذة الحسية، بينما كان يقول ثيودورس أتيوس الأعمال بنتائجها، وقيسها عليها، ثم جاء أبيقور وطور في المذهب وأضاف إلى اللذة الحسية ما يجلب المنفعة ويدفع الألم، أي نطلب لذة خالصة دائمة وهي ما يعبر عنها بالسعادة، كما أعلى من شأن اللذات الروحية، ودعا إلى اتباع مطالب الفضيلة. (يراجع: مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، ص ٨٠ وما بعدها).

انتهت إلى بنتمام (١) الذى جعل النفعية منتهى اللذة لتحقيق ما فيه مصلحة الناس، حيث يقول: "إن اللذة في نطاق الأخلاق كالحادث في نطاق الفيزياء، وإن العلم الأخلاقي كالعلم الطبيعي، يعتمد إمكان القياس، وهذا الإمكان متوفر ما دام المجتمع يقرر أسعارا مختلفة، ويحدد للجزء درجات متفاوتة... (٢)"، وهو ما يجعله يقر بأن الطبيعة البشرية هي التي توجه السلوك الأخلاقي، والتي تعنى بتحقيق أكبر قسط ممكن من السعادة لأكثر عدد ممكن من الناس.

وتعتبر هذه المنفعة المبدأ الذي يتوقف عليه تحسين أو تقييح أي فعل تبعا لرغبة الفرد، وتحقيقا للميل الذي يمتلكه زيادة في سعادة الطرف الآخر أو تقيحها.

وعلى الرغم من تبني القول بنسبية القيم فإنها تؤسس لنظريتها بناء على موقفها من الحقيقة، فإذا هي ترفض رد الحقيقة إلى أصل سابق عليها، سواء كانت فكرة قائمة في الذهن أم لها وجود خارجي مستقل عنه، تعدها مودعة فيما تسفر عنه نتائج أفكارنا التي هي ذات طابع عملي.

وإذا كانت البراجماتية تؤمن بأن المنفعة هي مصدر القيم، إلا أنها لا تقتصر في المنفعة على مجرد تحقيق اللذة، بل لا بد أن يكون للفعل منفعة عملية، ولا نستطيع أن نعرفها إلا بإثبات صدق الفكرة مع غيرها من الأفكار، وذلك عن طريق

١- لا يغيب عنا أن تأثر بنتمام بالتفكير الاقتصادي قاده إلى اعتقاد هذا الرأي، الذي يهدم القيم الأخلاقية، ويقسها بمقياس مادي بحث يضع معه معنى القيم.

٢- يراجع: اعتبر أصحاب هذا المذهب الإحساس مصدرا للمعرفة، وأن أحكامنا ما هي إلا صياغة لهذا الإحساس الذي ينبع من الإنسان مقياس كل شيء، وأنه ليس هناك محرك لهذا الإحساس إلا السعادة التي هي اللذة، وهي الخير الأقصى الذي يتغياها الإنسان، ويعمل في سبيل الحصول عليه.

وقد تكون الرغبة مصدرا لتلك اللذة التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، لذا أرجع سبينوزا القيم إليها؛ حيث إن ميله واشتهاءه إلى أمر ما هو الذي يعطيه قيمة، ويبعث في نفسه الدافع الذي يحقق تلك القيمة.

التي تنبع من الصلات الفعالة التي تربط بين أفراد الإنسانية، وتفيض من ثمرات فاعليتهم التي نسجوها (١).

ولا يستطيع أحد أن يتنكر لتلك الروابط الوثيقة بين البرجماتية والوجودية، فهما معا "احتجاج على النزعة العقلية المجردة، وهما معا يؤكدان على أهمية الاعتقاد والفعل، وهما معا يعترفان بمخاطرة الإيمان كموقف يضطر معه إلى اتخاذ قرار، بناء على مقتضيات الوجود العيني، قبل أن تتمكن من الوصول إلى الأسس النظرية للقرار الذي اتخذناه، وهما معا يتخذان من تحقيق الإيمان لإنسانيتنا أو حطه منها أساسا لتأكيد الإيمان أو تزييفه" (٢) وذلك على الرغم من وجود اختلافات جوهرية بينهما، ككون معيار الفكرة عند البرجماتية معيارا نفعيا، وليس معيارا عاطفيا كما تتجه الوجودية.

إننا لا ننكر السلوك الإنساني فيما يتعلق بالميل نحو الحصول على اللذة وتحقيق المنفعة، وتجنب الألم ودفع الضرر، ولكننا ننكر أن يكون ذلك السلوك مصدرا للقيم، ذلك أنه لو كان يكفي ذلك لما وجد أي منا صعوبة في أن يكون صاحب قيم وأخلاق، ولكن "الضمير أو الشعور الخلقى لا يلبث أن يثير في أنفسنا الكثير من الشكوك حول قيمة اللذة في توجيه سلوكنا وهداية ضمائرنا، وحينما يتحقق الإنسان من أن حساب اللذات عاجز عن تحقيق التوازن النفسي لصاحبه، وأن حياة اللذة لا يمكن أن تفضي إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحي أو التمزق

١ - تراجع: الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، جون ديوي، ترجمة: لبيب النجيجي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م، ص ٣٢٨، // فلسفة القيم قنصوة، ص ١٤٣.

٢ - الوجودية: جون ماكوري، ص ٣٣. ولا يخفى أن الوجودية فلسفة عدمية دمرت حياة الإنسان من حيث أرادت تعميره، فقد أرادت أن تجعل الإنسان ذا معنى، ولكنها سلبت هذا المعنى عن العالم الذي هو جزء منه، فهي فلسفة هدامة، ضلت طريقها وتكبت تطلعها إلى السعادة منذ بدايتها.

النفسي، فنهاك لا بد من أن يتولد لديه إدراك واضح لعجز اللذة عن تفسير نفسها بنفسها، واقتناع تام بقصور مبدأ اللذة عن توجيه السلوك الإنساني كله". (١)

وبالجملة: فإن تأسيس القيم على ما سبق من آراء يعزز من استبداد الفرد بذاتيته، واستغنائها عن مصادر الإلزام الخلقى الذي لم يعد يأتي من قبل خالق الكون وواضع شرائعه، أصبحت القيم تابعة لهذا الإلزام الفردي الجازم حسب النظرية الكانطية، ليكون إلزاما معزولا ينتج ذاته ويبرر ذاته، ولا يرى إلا ذاته بعيدا عن كونه فردا في جماعة تعتنق مبادئ، وتؤمن بأمور تتشابه أو تتباين مع معتقدات جماعات أخرى.

وإن القول بتعدد مصادر القيم من شأنه أن يؤدي إلى ملزمات أخلاقية متناقضة، تصبح فيه القيم سلعة تخضع للعرض والطلب، في حالة عبثية لم تشهدا البشرية من قبل، فترتبط القيم بحالة البسط في العيش أو الضيق، أو بين الغنى والفقر، وكأننا في مشهد يراقب مؤشر البورصة في سوق القيم فيهلع إليه المنادون بالحدائث حين يرتفع، وينبذونه وراءهم ظهريا حين ينخفض، وهو ما يؤدي إلى اختلال وتدمير كل المرجعيات التي تؤسس عليها القيم، سواء عند من يقول بكون المجتمع أو الإرادة أو اللذة منشأ القيم ومصدرها. (٢)

١ - المشكلة الخلقية، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١٢٠، // مقدمة في علم الأخلاق، ص ٨٢.

٢ - هناك من يقول بنسبية الحقائق، ولكنه ينكر وجود القيم والأخلاق، فالمذهب الوضعي لم يذهب بعيدا عن كل ما سبق، فقد اعتبر القيم نسبية متغيرة لتغير ظروف المجتمع، فالوضعية المنطقية لا تؤمن إلا بالمحسوس، لذا استبعدت قيم الخير والجمال؛ لأنها ليست كائنة بالفعل، فليس ثمة قضايا أخلاقية أصلا، إذ إن العبارات الأخلاقية لا تعبر إلا عن بعض الرغبات أو الأوامر، أو مجرد تعبيرات عن العواطف والانفعالات، فليس لها أي معنى نظري أو عرفاني، وليست قابلة للتحقق تجريبيا، كما أنها مفاهيم غامضة لا تقبل التحليل، ولا يمكن ردها إلى عناصر تقبل الملاحظة المباشرة.

* أسباب القول بنسبية القيم:

ومع تدفق مصادر القول بنسبية القيم، إلا أن منابع هذا التدفق يكمن وراءها ما يلي:

أولاً: محاولة تأليه الإنسان والابتعاد به عن وجود قوة عليا تدبر أمره وتيسر شؤونه، يتبعها الانطلاق من مرجعية مادية بحتة، مبدؤها الإنسان، وغايتها الإنسان، ووسيلتها الإنسان، ولا حاجة إلى رب الإنسان، فلا تطلب من الخالق هداية ولا عوناً، مع إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص ومقدارها المادي، مع استبعاد كل إثارة للحب والإيمان، ومن ثم فلا يكون هناك أى قانون أخلاقي مطلق ينطوي على التزام مطلق، طالما أنه لم يعد هناك مصدر أعلى أو سلطة دينية لهذه الأوامر المطلقة.

ثانياً: الفصل بين العلم والحكمة، أي: بين الوسائل والغايات، يعني: جعل هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها، فليس وراءها حياة أخرى، فلا عالم إلا المحسوس الذى نراه، وقد أدى تضيق هذا الوجود الإنساني وقصره على الجانب المادي منه أن سلبوا العالم الغيبي صفاته وخلعوها على العالم المادي المحسوس، وادعوا

= ويكفي في الرد عليها أنه لو صح ذلك لما كان هناك موضوع للفصل في القضايا الأخلاقية التي يختلف حولها الناس، لأننا لن نكون إلا بصدد أمزجة مختلفة لا مجال للتفضيل فيها، كما أن الأحكام القيمية التي نصدرها تشتمل على معنى نعود في فهمه إلى بعض القرائن الموضوعية. (يراجع: المشكلة الخلقية، ص ٦٧-٧٠).

في ضوء ما سبق نصل إلى بيان أن المنظومة النسبية في القيم تبدأ من إعلان أن مركز الكون كامن فيه، وليس مجاوزاً له، وأن الإنسان مرجعية ذاته، وقد ترتب على ذلك إما موت الإله، أو أنه موجود، ولا علاقة له بالمنظومة القيمية.

ومن ناحية أخرى، تقوم تلك الفلسفة على أصولية مادية صرفة، ويجاورها الانفصال عن الألوهية، وإن شئت فقل الانفصال عن أية فكرة تدعم وجود إله للكون. (يراجع: القيم الحضارية في الإسلام، محمد عبد الفتاح الخطيب، دار البصائر، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص ٥٦ وما بعدها).

استحقاق الوجود المرئى لها، إمعانا في إثبات كمالات هذا الوجود، فخلعوا عليه الجلالة تحت مصطلح السيادة، تسترا على أصلها الغيبي، لتؤدي في نهاية الأمر إلى تسلط الإنسان وتأليهه، متعبدا نفسه فضلا عن تعبيده لغيره، متناسين بل متجاهلين حقيقة أن الإنسان محاط بالغيب إحاطة الشهادة به، أو أشد. (١)

ثالثا: دعوى الحداثة أنه لا يمكن تقدم العالم ولا تستطيع حضارة أن تؤتي ثمارها في ظل وجود قيم بادئة أتت من الماضي السحيق، حيث إن القيم التاريخية - ومن بينها القيم الأخلاقية والدينية - يجب أن تمحى وتزال بالكلية، لأنها قيم متخلفة، وقيم عصرية كما تحدث أالموند، وبدون محو تلك القيم فلن يتأتى للقيم الحداثية وجود.

رابعا: تطويع نظرية دارون في تطور الأنواع في مجال الأخلاق، إذ يرون أن لنظرية التطور نتائج نسبية، وإيحاء بأن المعايير الأخلاقية قد تطورت مع تطور المجتمع والنظم البشرية، فيكون التغير أساسيا للأخلاق مثلما أنه أساسى للبيولوجيا، والتغير يؤدي منطقيا إلى إنكار أي معيار مطلق. (٢) وبذلك يكون المجتمع منشئ القيم ومنتجها، وليس لها قداسة، حتى تقبل التغير ويستحسنه المستقبل.

خامسا: تنطلق بعض الفلاسفات في فهم العلم من مبدأ التحكم في الطبيعة لا معرفتها والتفاعل معها، فمع ظهور علم الأنتروبولوجيا واستخدامه في نطاق الفلاسفات النظرية والاعتقادات الدينية والقيم الأخلاقية، أدى ذلك إلى القول بتغير المعايير الأخلاقية مثلما تغيرت العادات البشرية. (٣)

- ١ - يراجع: روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الاتهامية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء، ٢٠١٢م، ص ٢٤، ٢٥، // القيم الحضارية ص ٧١.
- ٢ - يراجع: الفلسفة أنواعها ومشاكلها، هنتر ميد، ص ٢٧١.
- ٣ - يراجع: المرجع السابق، ص ٢٧٠.

المبحث الثاني النتائج المترتبة على القول بنسبية القيم

لقد تقرر في العقول أن الخطأ في النهايات دليل الخطأ في البدايات، لذا فإن فصل النشاطات الإنسانية عن الأخلاقية أدى إلى ضمور المرجعية الإنسانية واختفائها، بل أدى إلى سيادة فلسفة عبثية عدمية تقضي على الكائن الذي كرمه الله تعالى، فمصيره إما أن يتحول إلى مسخ حيواني لا يختلف عن سائر الحيوانات سوى في الشكل والهيئة، وإما أن يختفي من الوجود نتيجة فعل أخلاق الصيرورة والحركية والنسبية التي تتبناها الفلسفات المعاصرة، وهو ما عبر عنه ميشيل فوكو بأنه لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا يزال يريد أن يتكلم عن الإنسان، وعن ملكوته، وسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر، لقد بدأ العالم بدون الإنسان وسيتهيء بدونه، وما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان (١).

فمنذ أن جعل كانط من القانون الأخلاقي قانونا لا يتلقاه المرء من خارجه ولا يكون تابعا فيه لغيره، وإنما يتولى وضعه لنفسه، مستقلا بإرادته، أدى إلى أنه على قدر تقدم المجتمعات من الناحية المادية يكون اضمحلال الجانب الروحي والتدني لديها، بل إن المجتمعات البدائية أقرب إلى التدين الحق من المجتمعات المتحضرة، وذلك لأن تبعيتها في أخلاقها وأحكامها لقوة عظمى فوقها أو خارجها إلهيا كان أو مبدأ روحيا، أكبر وأظهر من تبعية هذه المجتمعات الأخرى في قوانينها وقواعدها لهذا الإله أو المبدأ (٢).

- ١ - يراجع: الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت ومطاع صفدي، مركز الإنشاء القومي، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣١٢.
- ٢ - روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ٢٠١٢م، ص ١٨٤-١٨٥.

لذا فإن القول بنسبية القيم وإرجاع مصدرها إلى الإنسان ترتب عليه ما يلي:

أولاً: أدى القول بنسبية القيم إلى حالة من الفوضى الأخلاقية بين المجتمعات، فطالما أنه لا يوجد معيار للحكم على قانون أخلاقي معين بأنه " أفضل أو أسوأ من الآخر، أو أعلى منه أو أدنى، فلن تكون هناك عندئذ أسس سليمة لتقويم السلوك، فيما عدا اتفاقه مع العرف الفردي أو الجماعي... فإذا كان سلوك الرجل الشرقي صواباً مادام يتفق مع المعايير الشرقية، وسلوك الرجل الغربي صواباً ما دام يرضي أمزجة الغربيين، فيمكن القول أن الالتجاء إلى التعذيب في عدالة العصور الوسطى كان صواباً، وأن المحاولات التي بذلت لإبطال عادة الهنود في دفن الأرامل بعد موت أزواجهن محاولات خاطئة". (١)

بل إن الحروب العالمية والإبادات الجماعية التي حدثت في القرن الماضي كانت صواباً وخيراً بالنسبة لمن قام بها. بل إن إلغاء الاستعباد وإنهاء الحروب لم يكن خيراً قط، وهو ما يفسر لنا وقوع تلك الحروب الطاحنة في زماننا، واندثار الأخلاق تحت عباءة الحريات المزعومة طالما أنها كلها تخرج من رحم النسبية، والفلسفات الداعية لها.

ومن ناحية أخرى فإن الألفاظ تفقد قيمتها ودلالاتها في ظل القول بالنسبية، فما الذي يمكن أن نفهمه من ألفاظ مثل الصواب، أو الخطأ، الصالح أو الطالح، الخير أو الشر في مذهب يلتزم النسبية التامة؟ ألا تنتقل الفوضوية من الأخلاق إلى الفوضوية في الألفاظ ودلالاتها، وهو ما يعني غياب أي وسائل تعين على تقدم الحضارة وتحقيق العمران، فضلاً عن غياب آليات التواصل والتفاهم بين بني البشر، إلا إذا سادت قيم الاستعباد، وأخلاق الاستبداد.

١ - الفلسفة أنواعها ومشاكلها، ص ٢٧٢.

إن هذه المذاهب المادية مذاهب غير إنسانية، وإن كانت تدعي تقويتها مركز الإنسان، ذلك أنها تنظر إلى القيم وغيرها من الأمور التي يسعى إليها الإنسان استمدادا واتجاها بها إلى خالقه على أنها محض خيالات، لأنها ترى أن المبرر الوحيد لأي شيء يتمثل في وجوده سواء سميناها خيرا أو شرا. (١)

ومن هنا نفهم أن ضمور المرجعية مفض إلى سيادة العدمية التي لا تؤمن بالكليات أو بالمقدسات، فلم ير في الكون إلا الصراع الدائم والتغير المستمر، فأصبح الإنسان غريبا في العالم الفكري الذي ابتدعه... ليتج لنا أخلاق الصيرورة التي تقوم على الفكر الواحد والأمر الواقع.

لم تنتج لنا الوجودية ذلك الإنسان القلق المتشائم العبي، الذي آمن بإنكار كل شيء من أجل لا شيء، ظنا منهم أن الإمكانيات الجديدة لا يمكن أن تظهر، وإعادة تقويم القيم لا يمكن أن تحدث إلا بعد الإنكار الشامل للمعتقدات والمعايير المتعارف عليها، فأنكروا وهدموا ولم يوجدوا البديل، فعاش الإنسان مهزوما مستشعرا الإحساس بأنه لا جدوى من وجوده، وأنه من العبث وإلى العبث يعود.

ثم إن فكر فرويد الذي " صور من الإنسان حيوانا يلهو بأعضائه التناسلية، ويدور في فلك غريزته الجنسية... منذ طفولته وهو يرضع ثدي أمه إلى شبابه ورجولته وشيخوخته وهو يحلم ويؤلف ويبدع الفنون والفلسفات وكل هذا في نظره مجرد إفرازات جنسية أخرى من نوع آخر متسام... حتى الدين هو اعتذار للأب مما يخفيه العقل الباطن من أحقاد عقدة أوديب، فالابن الذي كان يشتهي أمه ويريد أن يقتل أباه يحاول أن يخفي هذا العار واختلق لنفسه أبا سماويا بديلا يسجد له في خشوع، وقد نسي فرويد أن الدين كان موجودا قبل أن يوجد

١ - يراجع: تمهيد للفلسفة، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م، ص ٢٠٢.

التحريم بين الأم وابنها ومن قبل أن تظهر تلك العقدة الأوديبية على الإطلاق". (١)

ثانيا: أضحي الإنسان في نظر هذه المذاهب مجموعة من الدوافع المادية والاقتصادية والجنسية لا يختلف في سلوكه عن سلوك أي حيوان أعجم.

فما أفكار ماركس الذي حرك التاريخ كله حول غريزته الاقتصادية، وأن الإنسان ليس سوى مجموعة من الخوافز المادية، التي تخرج لنا من تطور علاقات الإنتاج الفكر والفن والدين، فليس وراء المادة إلا المادة، وليس وراء الموت إلا الموت، وما الله وجنته إلا أفيون الفقراء. (٢)

فظهرت إنسانيات مسطحة لا تعرف عن الإنسانية إلا ذلك البعد المادي، وغاب عنها ذلك البعد الداخلي والبعد الروحي الذي يجعل الإنسان إنسانا، حتى استحال الإنسان في ظل تلك الفلسفات إلى مجرد سلعة تستثمر من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الربح، ولن يستطيع الإنسان أن يبلغ طمأننته بعيدا عن هذا النظام الذي ينخرط فيه الجميع.

وأمام هذا الطغيان المادي ثارت عقول وتحركت أفكار المتمردين على ذلك الوضع، فنادت بالرفض والثورة على الجميع، وليس أمامها ثمة بديل سوى ذلك، وما عليها إلا بناء مجتمع بلا محظورات، مجتمع يباح فيه كل شيء بلا شرط أو قيد أو مانع من دين أو خلق أو تقليد، كما عرفنا عن فلسفة هربرت ماركيز،.... وهكذا تدور الإنسانية في فلك الثورة والرفض لكل شيء لتعتق نفسها من براثن

١ - الماركسية والإسلام، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٤٩. عقدة أوديب (عند فرويد) عقدة نفسية تصيب الطفل الذكر الذي يتعلق بأمه ويرتبط بها إلى درجة تجعله يكره والده لأنه يشاركه فيها، وتشير إلى مجموعة من المشاعر المكبوتة عند الطفل، كما يزعم فرويد، وقد استوحى هذا الاسم من الأسطورة الإغريقية التي يطلق عليها أوديب.

٢ - يراجع: الماركسية والإسلام، ص ٥٢.

المادية الاقتصادية والتاريخية، لتقع في برائن وسخرة الغرائز الجنسية وإشباع الرغبات البهيمية.

لقد أضحى الإنسان " غريبا في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجهاد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا، ولا بالنسبة لهيئتنا، إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا". (١)

ومن جهة أخرى فيما يتعلق بمذهب اللذة والمنفعة، فما حديث الأوس عنا ببعيد، ألم يؤد التطرف الشهواني في مذهب اللذة إلى نقيضه قديما، حيث رأى بعض رجال ذلك المذهب -هيجسياس- أنه من غير الممكن الحصول على اللذة، لأنه لا يمكن تحصيلها، لذا فمن الخير أن نتخلص من الحياة بالانتحار، استشفاء من متاعب الحياة وآلامها بالموت الذي لا ألم بعده. (٢)

نكاد نسمع صدى هذا الرأي في زماننا، فقد انتشر الانتحار تحلصا من آلام الحياة، وقضاء على البؤس الذي يعيشه الإنسان، كما انتشر الشذوذ الخلفي والطبعي للنفوس، فاستساغ الناس كل منكر مردول، وذلك تحت عباءة نسبية القيم وضرورة السعي نحو إشباع الذات بما تريد ودفعها إلى ما يشرعها باللذة!!

إن مقولة النسبية ومرجعية الإنسان لأخلاق ذاته أدى إلى فرض الإرادة الذاتية وتسلط الأهواء الشخصية على المجتمع، وفرض عليه التسليم بقيم التناقض والشذوذ، " إذ لا توجد معايير متجاوزة للإنسان يمكن الاحتكام إليها، أو محاكمة الواقع من منظورها، وما من شيء يتصف بالثبات المطلق، سواء تعلق الأمر بالقيم والمبادئ أو بطبائع الموجودات، فهي في وجهها المادي متطورة على

١- الإنسان ذلك المجهول، ألكسي كاريل، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٤١.

٢- يراجع: تاريخ الأخلاق، ص ١٠٢، // فلسفة الأخلاق، ص ٥٢.

الدوام، كما يرى دارون واتباعه، وهي في وجهها الإنساني ماهية يصنعها الإنسان نفسه كما انتهى إليه الوجوديون". (١)

وإذا كان الأمر كذلك فإن "الجماعات والأمم التي بلغت الحضارة الصناعية فيها أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدتها العلم حولها". (٢)

ثالثاً: أفرزت تلك النظريات والفلسفات قناعات لدى أصحابها بضرورة الانقطاع عن هداية السماء، فإن منظومة القيم التي لا تكون مشدودةً إلى معانٍ روحيةٍ موصولةٍ بمصدرٍ علويٍ يمدّها على الدوام لا يمكن أن تقوم إلا على الهوى، إذ إن سعادة الإنسان منوطاً بهذه الحياة وحدها، وهو ما أدى إلى فلسفة قيمية برجمانية مبدؤها القوة، ومنتههاها السيادة للأقوياء، وليس للضعفاء إلا فلسفة الإذعان من أجل البقاء.

وإذا تكسرت نصال القيم على نصال القول بنسبيتها فإن العالم سيخوض معارك دموية لا طائل وراءها، بل إنه يسعى إلى بسط هيمنته وإبراز منزلته لا شيء غير ذلك، بل إن الفكر الحديث أصبح، كما يقول فوكوياما "لا يقيم حواجز في وجه قيام حرب عدمية في المستقبل، ضد الديمقراطية من قبل أولئك الذين شبوا في ظلها، فالنسبية في القيم لا بد وأن تنتهي بتحديد قيم متسامحة أيضاً.. وليست النسبية سلاحاً يمكن أن يصبوب تجاه هذا العدو أو ذاك وفق اختيارنا، وإنما هي سلاح يطلق النار دون تمييز، فلا يصيب أسس المطلقات والمعتقدات والمسلمات في التقاليد الغربية فحسب، وإنما يصيب تأكيد هذه التقاليد لمبدأ التنوع والتسامح وحرية الفكر، ذلك أنه لم يكن ثمة ما هو صحيح بصورة مطلقة". (٣)

١ - القيم الحضارية في الإسلام، ص ٥٩.

٢ - الإنسان ذلك المجهول، ص ٤١.

٣ - نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرنسيس فوكوياما، ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٨٨.

إن الذي أوقع هؤلاء في تلك المآزق ما هو إلا ذلك الخلط بين القيم والتقييم، فالقيم تعنى بالمعايير، بينما يعنى التقييم بالحكم الذي تصدره على الناس والأشياء، وهذا الحكم يختلف من شخص إلى آخر، وهو ما يجعله أمرا نسبيا، ومتغيرا، أما القيم ذاتها فهي ثابتة وغير متغيرة، بوصفها معايير يحتكم إليها ويقاس عليها، فيكون الخلط بين نظرنا العقلية للقيم وانفعالاتنا بها وبين القيم ذاتها هو الذي أدى إلى القول بنسبية القيم. (١)

رابعا: البعد عن قيم الوحي المعصومة... وذلك أن هذه القيم الحداثية أو الكونية إن صح التعبير تقوم على خاصمة الدين، ونزع الألوهية عن العالم، وإنزال تلك القيم التي اخترعوها منزلة المثل العليا، فأصبح الإنسان والطبيعة مادتين قابلتين للتوظيف، ومن ثم تكون السيادة للطبيعة التي تُعتبر المرجعية لسلوك الإنسان، ومثله الأعلى الذي يضم كل قيمه ويناضل من أجلها.

لقد أصبح الإنسان في ظل المذهب البراجماتي وغيره " مجرد عبد للمنفعة، فهو يجري وراء اللذات ويسعى وراء المنافع، دون أن يفكر في الغاية التي يلتبسها من وراء تلك المنافع أو اللذات! ولا غرو فقد أصبح إنسان العصر الحديث مفتقرا تماما إلى الإحساس بالقيم، تلك القيم التي تكمن من وراء الأشياء، وتضفي عليها كل ما لها من معنى أو دلالة". (٢)

خامسا: أصبح الإنسان أداة استهلاكية لا كائنا منتجا، وكيونة حركية لا نفسا روحية، اختصرت القيم كلها في قيمة اللذة التي يمكن أن يحصلها الإنسان من أي شيء... اللذة وكفى.... يقول كونت دي نوي " إن اعتبار الإنسان مجرد وحدة فيزيائية كيميائية وجزءا من مادة حية قل أن تتميز عن الحيوانات كل هذا

١ - يراجع: قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، محمود محمدي زقزوق، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٥٤.

٢ - المشكلة الخلقية، زكريا إبراهيم، ص ١٥١. ويلحظ أن الفلسفات البرجماتية لم تجعل مرجعيتها في تحديد معنى القيم مفكرا أو مؤسسة، بل حصرتها في التجربة الفردية، وهي تنسجم مع ما قدمه جون ديوي في فلسفته المتأنقة والمتفقة مع تاريخ الولايات المتحدة.

سابعاً: إن القول بنسبية القيم يقود إلى العنصرية والهيمنة للقوة الغالبة ف: شعب الله المختار والتعامل مع القيم داخل منظومة معينة نحن أبناء الله وأحباؤه... واختفاؤها خارجها، ليس علينا في الأمين سبيل. هو دليل على تلك الانتقائية والعنصرية القيمة التي قلما توجد في مجتمع يرمى حقوق الإنسان التي اجتلب لرأب صدع المادية الطاغية تجميلاً وتلميعاً.

وحديثاً ألم تكن الحركات الاحتلالية اتخذت من قيم الرجل الأبيض " قيم المدنية" كشعارات تشير إلى حبس القيم داخل حضارات معينة، وما دونها فأراض بلا صاحب وشعوب بلا قيمة.

إن منظومة القيم عند هؤلاء دعوة إلى اللاقيم، ذلك أن الإنسان لن يحاسب على أفعاله وليست منظومته رهينة باليوم الآخر، بل منوطة بالحياة التي يعيشها لا غير، " لتخرج بذلك منظومة القيم عن جادة الاستقامة، الأمر الذي عرضها إلى انعطاف قيمها عليها بالسوء والفساد، حيث يظن أنها آتية بالسداد، وكأنها قيم محكومة بقانون عام هو: انقلاب المقصود إلى ضده" (١)، ومن ثم فلا توجد قيم إلا قيم البقاء، والبقاء للأقوى، ولا مكان فيها للأخلاق، كما سبق بيانه في فلسفة نيتشه.

وبعدما وقفنا على تلك النتائج القاسية التي تولدت عن القول بمثل هذه الدعوات فإنه يتحتم علينا أن نعرض على الرؤية الدينية والفلسفية للقيم ثباتاً واستمداداً وما يترتب عليه من نتائج ومآلات.

الفصل الثاني

مصادر ونتائج القول بثبات القيم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مصادر ومنطلقات ثبات القيم عند القائلين بها.

المبحث الثاني: النتائج المترتبة على القول بثبات القيم.

توطئة:

إن المتدين يدرك أنه ليس بالمخلوق الموجود بلا هدف، كما يدرك أنه لا يستطيع أن يكتشف طريقه بطريقة عقلانية محضة، بل هو محكوم بنصوص الوحيين الشريفيين، وإلا كثر التخبط والتفلسف، فما قلّت الآثار في قوم إلا كثر فيهم الأهواء^(١)، ويجمع هذه المعاني قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"^(٢)، أي يخرج عن داعية هواه ويكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً^(٣) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام: ١٦٢. بل إننا لو أجملنا فلسفة الدين لقلنا: إنها تكمن في ثبات الأخلاق، ولو سُئِلَ أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يُوجزَ علاجَ الإنسانية كلّها في حرفين، لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كلُّ علماء أوروبا ليدرسوا المدنية الأوروبية ويحصروا ما يُعوزها في كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق^(٤).

ولكن ثبات الأخلاق والقيم لا يعنى به ذلك الثبات الذي تبنته بعض الفلاسفات على مر تاريخها الإنساني، وهذا ما نحاول أن نعرض عليه في المبحث الذي بين أيدينا، وهو يشتمل على مطلبين:

- ١ - هذا أثر منسوب إلى الإمام مالك، يراجع: الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ، ج ١، ص ٣٨٣.
- ٢ - أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى، تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظم، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت، رقم (٢٠٩)، ص ١٨٨.
- ٣ - يراجع: الموافقات، ج ٢، ص ١٦٨ // القيم الحضارية في الإسلام، ص ٧٦.
- ٤ - يراجع: وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٦٩.

المبحث الأول

مصادر ومنطلقات ثبات القيم عند القائلين بها

إذا كانت القيم مستقلة في وجودها الثابت عن الأشخاص والطبيعة، فإنها تتعالى على أفكارهم ورغباتهم، وإذا كانت هي الكيان الذي يعتمد عليه كل نظام، والغاية التي ينبغي أن يكون عليها (١)، فإن الدين قد نظر إليها نظرة ثبات، لأنها جاءت من مصادر عليا، فهي قيم متسامية على الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، يخضع لها الناس، ولا تخضع هي للناس، وإلا لما كانت القيم قيما... حيث إنها تسعى إلى تنمية الإنسان والارتقاء به إلى مراتب الكمال العقلي والخلقي.

وإذا كان السفسطائيون قد حرصوا على رد القيم إلى الإنسان وجعلوها متغيرة ومتطورة، فلقد نظرت الفلسفات المثالية كفلسفة أفلاطون إلى القيم باعتبارها مطلقة وثابتة، وتعود إلى مثال أعلى، يعطي قواما لكل شيء، ويحفظه من التصدع والتهدم.

وعلى الرغم من تطابق هذه الرؤى في النظرة إلى ثبات القيم ومطلقيتها فإنها تنطلق من مصادر شتى وتعتمد على أسس مختلفة، فإن كان الدين يعتبر الوحي مصدرا للقيم، فإن الفلسفات المثالية تعتبر العقل أو الوعي أو الحدس مصدرا لها، وبيان ذلك:

أولا: مصادر القول بثبات القيم في الفلسفة المثالية:

يعد إنكار مبدأ التجربة وكونه مصدرا للمعرفة بالحقائق الثابتة والقيم المطلقة على السواء منطلق الفلاسفة المثاليين، بل إنهم ينكرون أيضا أن تكون التجربة

١ - يميل القائلون بمطلقية القيم إلى تشبيه القانون الأخلاقي بقانون الجاذبية، فكما أنه من الخطأ أن نعتقد أن قوة الجاذبية ليست لها إلا قيمة ذهنية أو ذاتية، فإنه من الخطأ أيضا بنفس المقدار اعتقاد أن كل فرد يخلق خيره أو حقه الخاص بناء على تفضيلاته، وكما أن الجاذبية توجد قبل اكتشاف نيوتن لها، فكذا القانون الأخلاقي كان موجودا قبل أن نعرفه، وهو ما زال مستقلا عن معرفتنا. (الفلسفة أنواعها ومشاكلها، ص ٢٦٦).

وسيلة لإدراك تلك القيم والحقائق، بل العقل والحدس أو الوعي وسيلة إدراكها واكتشافها، كما اعتبروا أن القيم كلية وليست جزئية، ضرورية وليست عارضة، لا تقبل شكاً أو جدلاً أو تحتمل تناقضاً. (١)

أ- المثالية في المذاهب القديمة:

إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يبحث عن شيء ذي قيمة بمقدار بحثه عن السعادة، فإنه لا يفتأ يتعرف عليها في شيء غير مادي، وإنما أثر لحالة نفسية أخلاقية، تنشأ نتيجة الانسجام بين رغبات الإنسان وبين الظروف التي يوجد فيها، ولن يتمكن الإنسان من الحصول عليها إلا بالعلم، كما أشار إلى ذلك سقراط الذي دعا أيضاً إلى الإيمان بالآلهة ليكون ذلك مكماً للحياة الأخلاقية التي تستند أصالة إلى الحكمة. (٢)

لقد طبق سقراط نظريته في المعرفة والتي توصل بها إلى إدراك الحقائق الثابتة في نظريته إلى القيم المطلقة في مجال الأخلاق، فاعتبر الطبيعة البشرية جسماً وعقلاً يسيطر على دوافع الحس ونزواته، فالأخلاق تتوافق مع الطبيعة الإنسانية العاقلة، وتتعارض مع الشهوة الجسمية الحيوانية، وبذلك لا تكون اللذة غاية أفعال الإنسان (٣).

لقد قرر سقراط أن الإنسان "روح وعقل يسيطر على الحس ويدبره، وأن القوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة، وهي صورة من قوانين

١ - يراجع: فلسفة الأخلاق، ص ١٢٥.

٢ - يراجع: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: عبد الحليم محمود، أبو بكر ذكري، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٧٦.

٣ - يراجع: فلسفة الأخلاق، ص ٥٠، ولا يخفى أن تسوية سقراط بين الفضيلة والمعرفة أمر غير صحيح، حيث إنه تجاهل الجانب الشهواني في طبيعة البشر، وظن أن أفعال الإنسان تجري وفاقاً لحكم العقل وحده، وهو ما يجعل الفضيلة أمراً يمكن التعلم، شأنها في ذلك شأن المعرفة، ليقع في تناقض بعد ذلك، حيث اعتبر الفضيلة والرذيلة لا إراديتين.

غير مكتوبة رسمها الآلهة في قلوب البشر، فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الإلهي" (١).

بينما تابع أفلاطون أستاذه في رفض موقف السفسطائية من رد المعرفة إلى الحس وإنكار الحقائق والقيم المطلقة، إلا أنه خالفه في تجاوز الماهيات المتحققة في المحسوسات ليقول بنظريته في المثل، والتي تعرف بالماهيات المفارقة للمادة، وهي أساس المعرفة ومعيار الأحكام.

ومن ناحية أخرى فقد أقام أفلاطون قانونه الأخلاقي على أساس العقل، حيث يستطيع أن يلزم به كل الناس، كما اعتبر قيمة الفعل باطنية ذاتية، بمعنى أن الإنسان لا يقدم على فعل إلا باعتباره غاية في نفسه، لا باعتباره موصلاً إلى غاية مباينة له وخارجية عنه (٢)، كما اعتبر الفضيلة غير العلم، فالعلم ينتقل من عقل إلى عقل بالبراهين والأدلة، وليست الفضيلة كذلك، فلا تنتقل من رجل لآخر بالعلم، وإنما بإلهام وبصيرة يشوبها قبس من التحمس الديني (٣).

ولقد جرى أرسطو على نهج أسلافه، فرفض فكرة تغير القيم والأخلاق، كما رفض كون اللذة غاية ما ينتهي إليه الإنسان، أو مصدر القيم، ولكنه فارق أفلاطون في البعد عن نزعة التجريدية، وإيغاله في عالم المثل، فتمسك بالتجربة الإنسانية أو قاربها.

إن الأخلاق والقيم عند هؤلاء أسست على بنية شاهیة لیس أساسه الدين، وإنما يرون أن الإنسان مزود بطبيعة خاصة - وليس بمهم أن نعرف من وهبه هذه الطبيعة - تتميز ببعض المطامح، فليس على الإنسان سوى أن يعرف نفسه بنفسه،

١ - تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ٥٣.

٢ - يراجع: فلسفة الأخلاق، ص ٧٤.

٣ - يراجع: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ص ٨٥.

ويستشعر ما يريد حقيقة، وإنارته ليستخلص من ذلك قواعد للسلوك يطبقها في حياته، حتى يصل إلى ما يريد(١).

ب- المثالية في المذاهب الحديثة:

إذا كان الحسيون أو التجريبيون رفضوا القول بوجود أفكار فطرية يولد الإنسان مزودا بها، ولا يتوصل إليها عن طريق التجربة، وأنكروا وجود المبادئ العقلية البديهية التي تدرك الحقائق بدون طلب برهان أو دليل، وحصروا المعرفة في الحس وحده، واعتبروا التجربة المقياس الوحيد الذي يمكن استخدامه للفرقة بين الخير والشر، فإن المثاليين قديما وحديثا يتفقون على أن العقل قوة فطرية في البشرية، وهو مصدر كل معرفة يقينية تتميز بالضرورة والصدق المطلق، وأحكامها صادقة دوما وبصورة محتومة تتخطى الزمان والمكان، والظروف والأحوال، ففي العقل مبادئ فطرية لم تكتسب من خبرة حسية ولا تأمل عقلي، كمبدأ عدم التناقض، وغيره هي حقائق واضحة بذاتها تدرك بالحدس دفعة واحدة دون مقدمات تسلم إليها، إلا أن بعضهم وقف بالحدس كمرحلة أولى تليها مرحلة الاستنباط العقلي، وبعضهم وقف عندها وأغفل سواها، ورد كل قيمة إليها واعتبرها أساسا للقيم(٢).

بيد أنه ينبغي التنبيه إلى أن المثاليين اختلفوا بعد ذلك في وسيلة إدراك القيم فبعضهم مال إلى العقل فقط، وبعضهم اعتبر الحدس فقط، وبعضهم ادعى أن الوعي هو أداة إدراك القيم واكتشافها.

فمن جهة اعتبر كانهل الإلزام الداخلي الحر أو الوعي الإنساني المباشر أساسا للحياة الخلقية، حيث إن السلوك الديني عند الأشخاص يتولد من الشعور لديهم

١ - يراجع: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ص ١٢٨.

٢ - يراجع: فلسفة الأخلاق، ص ١٨٥.

بحاجة إلى مثل أعلى خلقي، صادر عن اختيار حر أو إلزام داخلي، وليس صادرا عن طاعة لسلطة خارجية، أو أوامر إلهية (١).

بينما يرى الفيلسوف جود من جهة ثانية أن القيم " ليست ثمرة صنع الإنسان، وليست من نتاج العقل، ولا يمكن أن يجذبنا المثل الأعلى لتحقيق ما لم يكن له وجود مستقل عن العقل الذي يدركه، وعن الجهود التي تبذل في سبيل تحقيقه، فهي توجد في الواقع غير المادي الذي يوجد فيه كيانا الروحي، فالقيم هي عناصر الحياة العقلية المستقلة عن وجودنا، وهي أهداف وغايات ينبغي أن نسعى لتحقيقها، لأنه متى كانت القيم واقعية ويمكن معرفتها بالعقل الإنساني، فلا بد أن تكون لها القوة التي تجذب العقل الذي يدركها" (٢).

ويتضح لنا أن الواقع عند جود قسمان: حسي مادي، روحي، والقيم تنتمي إلى الواقع الروحي اللامادي، وأن الكون ينطوي على تلك القيم سواء أنكرتها العقول أو أقرتها.

وهكذا ينزع كل فيلسوف من الفلاسفة إلى منحى معين يدرك به القيم من منظوره الخاص ومن تصوره العقلي لها، فكما اهتم ماكس شيللر بالقيم من منظور مادي، بل إن القيم الأخلاقية عنده -مناط البحث- لا وجود لها في فلسفته، وعارضه لافيل واهتم بها من منظور روحي، رآها هارتمان موضوعات مثالية موجودة في ذاتها، مستقلة عن كل تفكير ورغبة، قابلة لإدراك الذات لها إدراكا حدسيا وقلبيا لا علاقة له بالتجربة، لتقترب من نظرية المثل الأفلاطونية، بل ربما عدوا عالم المثل (العالم الحقيقي)، وما عالم الأشياء إلا انعكاس له.

وهكذا تدور عديد الأفكار في فلك الإنسان وتبحث سبل الترقى به بعيدا عن هداية السماء، وإن اتفقت معها في بعض النقاط، بل ربما وجد بعضهم

١ - يراجع: رواد المثالية في الفلسفة الغربية، عثمان أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٢٢.

٢ - نظرية القيم في الفكر المعاصر، ص ١١٦.

ضالتهم في تلك الفكرة - القيم موجودة ومطلقة - لتكون برهانا على عدم وجود الله (١).

هذا، وإن القول برد القيم إلى العقل فقط أمر يحمل بين طياته عوامل بطلانه، إذ لا نستطيع أن نغلب عقل فرد أو مجموعة على عقول الآخرين، فلطالما اختلفت العقول واختلفت مشاربها وتعددت اتجاهاتها فلا يمكننا ان نضع معيارا موحدًا للقيم يصلح لكل زمان ومكان.

بل إن القول بمطلقية القيم اعتمادا على العقل قاد بعض القائلين بها - نقولاي هارتمان - إلى التخلي عن الإيمان بالله، بعد أن كان يعتقد أنها صادرة عن رحمة الله ولطفه (٢).

١ - يراجع: نظرية القيم، ميمون ص ٢٦٥.

- أرجع هنتر ميد مصادر القول بمطلقية القيم إلى ثلاثة مصادر:

المصدر التاريخي، ويعني به المصدر الديني، الذي يقوم على الإيمان بإله واحد يحكم الكون، وكلف الإنسان بجملة من الأوامر والنواهي، ولا تزال هذه الأوامر والنواهي قائمة وصالحة في كل زمان ومكان، وتنطبق على الناس جميعا، إذ إن القانون الإلهي شامل ومطلق.

المصدر المنطقي: حاول كانط أن يثبت أن خرق القانون الأخلاقي خرق لقوانين المنطق، فاللأخلاقية تنطوي دائما على تناقض مطلق، فإننا إذا أعطينا وعدا دون أن يكون في نيتنا الوفاء به، فإن سلوكنا يكون شرا، لأننا نتصرف على أساس مبدئين متناقضين في آن واحد، أولهما: أن الناس ينبغي أن يؤمنوا بالوعود، ولكن إذا أخلفت وعدي، فيكون لكل شخص الحق في أن يخلف وعوده، ما دام القانون الأخلاقي ينبغي أن يكون شاملا، ولو أخلف كل شخص وعده لأدى ذلك إلى مبدأ آخر، هو الصحيح أن أحدا لا ينبغي أن يؤمن بالوعود. وهو مبدأ يتناقض مع المبدأ الأول، وبذلك يكون قانون عدم التناقض هو المبدأ الأساسي للأخلاق عند كانط.

المصدر الكيفي: ثمة نظرية أخرى حاول أصحاب الاتجاه العقلي تبنيها للقول بثبات القيم ومطلقيتها وهي أن القيم كيفية لا تعرف ولا ترد إلى غيرها، تتصف بها أشياء أو أفعال أو مواقف معينة، وهي كيفية شبيهة بالكيفيات اللونية. (الفلسفة أنواعها ومشاكلها، ص ٢٦٦-٢٦٧).

٢ - يراجع: نظرية القيم، ميمون، ص ٣٤٠.

وهذه الصورة يتبدى لنا أن القول بنسبية القيم أو بثباتها اعتمادا على العقل وانطلاقا من الإنسان وانتهاء إليه لا يرقى بالقيم ولا يخدمها بل أصبح معول هدم وافتراق، لا معول بناء واجتماع.

ثانيا: مصادر القول بثبات القيم في الرؤية الدينية (١):

تستند القيم في الإسلام إلى الوحي بمعنى أنها مستمدة منه؛ لأنه منهج كامل يحيط بحياة الإنسان نظريا وعمليا، فرديا ومجتمعا، بل وكونيا؛ لذا فإن القيم تملك معايير وثوابت معصومة تحققت من خلال معرفة الوحي الذي يشكل لها "تلك القيم في التصور الإسلامي؛ إذن، ليس إلى الرأي والهوى، وليس إلى العقل البشري بلا قاعدة ولا ضابط، وليس إلى المصلحة كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله، وليس إلى أي اعتبار آخر غير اعتبار واحد هو الوحي المعصوم" (٢).

والمبدأ الذي تنطلق منه القيم الدينية هو مبدأ تحصيل المعية الإلهية، انضباطا بمعيار الدين، وعملا على مقتضى الشرع... وترسيخا للذات الإنسانية، ومراعاة لحق النفس، وحق الغير، تصحيحا للسلوك أصلا ومقصدا ووسيلة.

كما أنها تتميز بالشمولية والتكامل فهي قيم تشكل رؤية شاملة للكون بأبعاده المختلفة وترتقي به عن المادية والسطحية إلى المثالية، ذلك أنها "لا تخص صلاح الفرد الواحد، ولا الأمة الواحدة، وإنما تتبغى صلاح البشرية قاطبة، بل تتبغى صلاح جميع المخلوقات التي في العالم" (٣).

١ - يعنى بالدين هنا الدين الإسلامي، غير أن اليهودية والمسيحية وإن اعتبرتا أن هذا العالم كان موطننا للوحي السماوي، تجلى فيه الإله بذاته، وجاء وسط بني الإنسان فعرفهم ببعض الحقائق، وألزمهم أخلاقا وقيما معينة، إلا أن البحث عني ببيان الرؤية الإسلامية لشمولها واتساقها مع ما تدعوا إليه من قيم أخلاقية.

٢ - القيم الحضارية في الإسلام ص ١٠٢

٣ - سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ١٥٨.

ولما كانت القيم تعنى بالفضيلة العملية في حياة الإنسان وبمختلف علاقته مع الخالق والمخلوق، "كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية... ويمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية فيضع لها المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة، فيصبح اتباع الفضائل الفردية والاجتماعية نوعاً من الطاعة لأوامر الدين، وباباً من أبواب القربات والعبادات الإلهية، فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدأ العدالة الإنسانية، وتلبية لداعي الفطرة السليمة" (١).

وهكذا تنطلق القيم من الإنسان لترتقي بالإنسان، وليس المقصود به ذلك الإنسان الذي يصوره العلم التجريبي أو الفلسفة الحدائثة كقيمة استهلاكية، الدائر في فلك مادي طبيعي نفعي، وإنما الإنسان الذي أسس بنيانه القرآن الكريم وأرست دعائمه السنة النبوية، في إطار فلسفة التكريم له والتسخير لما حوله... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، فهو يتحرك في إطار المعية الإلهية، مراعيًا المقاصد الإنسانية الكلية.

وتبعاً لذلك فلا تقوم القيم بوظيفتها إلا ببيان وجه إلزامها، وعليه فإننا لا نستطيع أن نجعل العقل ملزماً لكل أفراد ومجتمعاته على السواء، فإذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون للقيم فائدة، ذلك ما جعل التصور الديني للقيم مثيراً وناجعاً في الوقت ذاته؛ لأن الإحساس بالسلطة الآمرة التي يستشعرها الفرد تجاه الخير الأخلاقي تحمله أن ينفذ نفس الأمر أياً كانت الحالة الراهنة لشعوره، وهو ما يعني أن تجاهله للقيم يعد أمراً مستقبِحاً (٢).

١- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص ٩٣-٩٤.

٢- يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة. د.ت، (ص ٢٢ وما بعدها).

ولا يصلح هذا الإلزام إلا مع مثال أعلى يهيمن على الإنسان ويخضعه له، لا أن يكون نوعاً من الإلزام الفردي أو الإرهاب الجماعي؛ لذلك عاب القرآن على من يتخذون أهواءهم آلهة لهم، أو ينقادون على طريق التقليد لمن سبق بدون برهان أو دليل.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ الجاثية: ٢٣، وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٣

وإن الإنسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وسخر له ما حوله، وصاغ كيانه الروحي والجسمي في أحسن صورة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) فلم يشأ له سبحانه وتعالى أن يجعله كباقي الكائنات خاضعاً لقانون التسخير بل شرفه بالاستخلاف والتكليف ووهبه "إرادة يقرر من خلالها الالتزام بالقيم والمثل العليا والمبادئ الإلهية أو عدم الالتزام، وبذلك يتميز الخبيث من الطيب والصالح من الطالح وجاءت الرسائل السماوية لتكشف له عن القوانين الأخلاقية والقيم الإنسانية" (١) حتى ختمت برسالة الإسلام التي جاء نبيا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق (٢).

ومن هنا فإن القيم الأخلاقية تقوم على المثالية العليا، فالله الذي جعل لنفسه المثل الأعلى، والله المثل الأعلى، طلب أن يتخلق المؤمن على قدر طاقته بما علم من أسماء الله تعالى وصفاته سبحانه والتعبد بمقتضاها.

وإذا كان الوحي مصدراً للقيم فإنه ليس ينبغي أن نظن أن القيم الأخلاقية دينية بمعنى أن رقابتها توجد فقط في السماء، وأن جزاءها فيما وراء الموت، كما أنها

١ - قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، ص ١٥١

٢ - قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ج ١٠، رقم (٢٠٧٨٢)، ص ٣٢٣

ليست دينية بمعنى أنها لا تجد دافعا لها إلا في الخوف والرجاء، ولا تجد تسويغا إلا في إرادة عليا تملي على وجه الاستعلاء أو امرها مستقلة عن كل ما يقتضيه العقل، بل إنها دينية بمعنى أن الوحي لم يزل يدعو إلى أعمال العقل وتفعيل الشعور والتوجه بالإرادة نحو الشيء، وأنها خير تطلب لذاتها بحرية واقتناع تام. (١)

وإذا كانت القيم بهذا التصور فإنها تكون خارجة عن وضع الإنسان وغير منحازة لفعله أو تبريره وغير خاضعة لرغباته وأهوائه وهو ما يمنحها صفة الثبات والرسوخ لأنها قيم مقررة من الشارع الحكيم الذي يضمن صحة المقاصد ونجاعة الوسائل لذلك يظل الإنسان يستشعر وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه في كل ما يعرض له فيكون في اطمئنان لا يتيه معه عن معالم طريقه المستقيم (٢).

هذا التصور للقيم يضيف عليها نوعا من التكامل بين مختلف أوجه الحياة، فالذي "ينظر بعين المتجرد في الممارسة الإسلامية لا يسعه إلا أن يعترف بأنها تأخذ بقوة بمبدأ إنساني عام، وهذا المبدأ هو حقيقة التكامل الخُلقي والخُلقي للإنسان، ويظهر التكامل في خلق الإنسان من جهة كون الإنسان على اختلاف مظاهره وتعدد قدراته ليس مجموعة من الأجزاء التي تقبل إيقاع الانفصال بينها، وإنما هو عبارة عن ذات واحدة تجتمع فيها صفات العقل مع صفات الوجدان، وقيم الجسم مع قيم الروح اجتماعا شرّح له الدين الإسلامي بأحكامه السديدة، ويظهر التكامل في خلق الإنسان من جهة أن الإنسان يطلب الكمال في كل أفعاله، فلا يصل إلى مرتبة حتى يطلب مرتبة فوقها، ولا يزال آخذا في هذا التدرج بتزكية

١ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن، ص ٦٧٦.

٢ - يراجع: القيم الحضارية في الإسلام ص ١٠٢. يقول ماسلو: إن القيم محور عام في جميع أماكن العبادة عند كل الديانات، وهي الغايات النهائية للعلاج النفسي، وغيرها.. ونرفض أن تكون الحقائق محايده أخلاقيا ومنفصلة كليا عن القيم، وإلا فإنها تبيح من الناحية النظرية للطبيب النازي أن يقوم بتجاربه في مخيمات الاعتقال. (فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٣٣).

لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت
راحة لي من كل شر" (١).



١ - صحيح الإمام مسلم، كتاب/ الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب/ التعوذ من شر
ما عمل...، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، رقم
(٢٧٢٠) ج٤، ص ٢٠٨٧.

المبحث الثاني النتائج المترتبة على القول بثبات القيم

لقد ترتب على القول بثبات القيم جملة من النتائج متباينة بين الفلسفات المثالية وبين الرؤية الدينية، فمن سبر أغوار الفلسفات المثالية يعرف أن ما حاولت الفرار منه حين وقفت على مثالب القول بالنسبية ومآلاته أوقعها فيها هو أشد خطورة وأبعد موثلاً، ذلك:

أن الناظر بعين فاحصة إلى الفلسفات المثالية يجد أنها رسمت للقيم صورة مطلقة مغالية في المثالية، لا يمكن بلوغها إلا إذا أعيد خلق الإنسان وتركيبه مجرداً من رغباته ومشاعره، وانقطع عن عالم الدنيا وما فيها من رغبات؛ مما أدى إلى انهيار تلك الفلسفات (١)، والأشد خطورة من ذلك هؤلاء الذين يظنون أن ابتعاد العلم التجريبي عن المصدر الإلهي للقيم واقتناعه بأن انحطاط الحياة هو في الواقع خير علاج لمعالجة ما يؤلم، ولقد اتصف العلم بمسحة شيطانية، وهي الرغبة في توجيه الصدمات بطريقة لا تتجمل من عدم التقوى.

وعلى النقيض من ذلك، ففي الرؤية الدينية لا يكتسب الإنسان أية قيمة جوهرية إلا من رحمة الله الواسعة، وذلك بأن يدرك الإنسان حدوده وتركيبته ومقدرته على التجاوز، فيعرف أنه جزء من الطبيعة ولكنه لا يُرد لها، فهو ليس بإنسان طبيعي مادي، وإنما إنسان طبيعي رباني، يعيش في الطبيعة والزمان، ولكن توجد داخله عناصرٌ قبس إلهي لا يمكن أن تُرد إلى النظام الزماني والطبيعي، وأن يعرف أن حياته ليست مجرد حلقات متكررة، توجد في عالم المادة، وإنما لها معنى، وغاية تسعى إليها (٢).

١ - فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٣٥.

٢ - اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٨٢.

ومن ناحية أخرى فلقد أوجدت النظم الأخلاقية التي تستقي تشريعها للفضائل الأخلاقية بعيدا عن وحي الدين إنسانا منطويا على نفسه متخذًا مثله الأعلى في العزلة والصمت والتأملات العميقة، لينتهي به الأمر إما إلى قتل النفس حسا أو معنى، وإما إلى وأد الجانب الروحي والتغلغل في أعماق المادية البحتة (١).

ولقد أثمرت الرؤية الدينية وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان في كل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات.. وكل ما يجد في حياته من ظروف وارتباطات وملابسات، فيظل في الدائرة المأمونة، لا يشرذم إلى التيه ولا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات، ولقد أدى ازدياد تعقيد ظواهر المجتمع البشري وحاجة الإنسان المعاصر إلى قيم معيارية تمنحه الهوية والانتماء، وبخاصة بعد انهيار محاور الانتفاء ونظم القيم القديمة التي كانت توجه سلوك الأفراد والجماعات الماضية المحلية والإقليمية، وبطلان فاعلية القول بنسبية القيم، وتهدم الحدود بين الثقافات المحلية والإقليمية والقارية واختلاط القيم العالمية لجدير بالبحث عن قيم معيارية عالمية. إبقاء للنوع البشري ورقية، وهذا لا يوجد إلا في الرؤية الإسلامية للقيم (٢).

ثم إن القول بالثبات يصبغ القيم صبغة القبول ويلبسها ثوب الإلزام، فإذا علم الإنسان أنها من الله عمل بمقتضاها وواظب عليها، تقربا إليه سبحانه، إذ للإسلام في كل وجه من وجوه تلك القيم أمر ونهي وإباحة ومنع وندب وكراهة... مما يعطي الإنسان شعورا بالمسئولية تجاه الالتزام بها ومراقبة ضميره الداخلي.. حيث إن تجاوزه وتعديه عليها سيكون تعديا لحدود الله، لأن الذي تولى حراسة هذه القيم هو الله، ومن يجاوز تلك القيم فقد عرض نفسه للظلم والهوان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١)

وذلك على النقيض من القيم التي تنتجها المثاليات البشرية، فهي تولد باردة لا تحرك نفسا ولا تخلق شعورا موضوعيا بالمسئولية، مما يستشعر الإنسان معها

١ - يراجع: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ٩٤.

٢ - يراجع: فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٣٠

إرادة الالتفاف عليها ومحاولة التخلص منها إذا وقفت أمام رغباته ونزواته، فكأنما صنع قيمه فإذا ملها أو وقفت في سبيل لذته أكلها.

وهكذا تشكل في وعي الإنسان أن الاعتماد على العقل فقط بدون مثال أعلى يرشده إلى الطريق المستقيم، يقوده إلى بلبله وقلق لا يستطيع معها بلوغ السعادة التي ينشدها، واختلطت عليه مفاهيم العدل والظلم والخير والشر، لأنها خضعت لعقول البشر واستهدفت مصالحهم الخاصة، ولا يستطيع الإنسان أن يخرج من هذا المأزق إلا بقانون أخلاقي دائم مطلق، وليس ذلك إلا للدين وحده، فهو القادر على أن يقدم هذا القانون المطلوب "ومن هنا تصبح المسافة هائلة بين الضوابط والقيم التي تنبثق من تصور: الألوهية في الله وحده وما سواه له عبد، وتصور: الألوهية في الإنسان وعقله ومنافعه وبذلك تفقد الصفة الأساسية للثبات والخلود، لتقلب العقل وتلونه، إضافة إلى افتقارها إلى عنصر الارتكاز النفسي والعقلي الذي يضمن لها الاحترام والقبول؛ إذ يصبح الإنسان المحل والمعياري في آن" (١).

إن الرؤية الدينية للقيم تؤول إلى تحقيق مصالح العباد ودرء المفسد عنهم بصورة متوازنة لا يطغى فيها جانب على جانب، إذ إن المصالح عبارة عن المنافع التي يتحقق بها صلاح الإنسانية في الحال وفلاحها في المآل، فمطلوب الشرع دوماً مصالح العباد في دينهم وديناهم (٢)، وهو ما يعني أن المصالح تمتد لتشمل حياتي الإنسان مع الدنيا والآخرة، وتحقق رغباته المادية والروحية؛ لذا فإن المصالح المجتلبة شرعاً والمفسدة المستدفة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الآخرة، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، أو درء مفسدها العادية (٣)، أو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "الإنسان إنما هو إنسان باقتداره

١- القيم الحضارية في الإسلام ص ١٠٦.

٢- يراجع: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية- بيروت، ج ١، ص ٧.

٣- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ج ٢، ص ٣١.

على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه... وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار" (١).

إن منظومة القيم الروية الإسلامية مبنية على رفض أي قيمة تستلب من الإنسان إنسانيته باستعباده واستذلاله، لذا فإن الإنسان الذي شاده القرآن وصاغته السنة النبوية وألزمه الوحي بالقيم الأخلاقية لم يكلف من العبادة إلا بقدر ما تحصل له الإنسانية التي من أجلها خلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ منها، وهو ما يعني: أن الإنسانية لا تكتسب قيمتها إلا من رحمة الله الواسعة (٢).

أما في الفلسفات المثالية فإنها عادت إلى الحتمية كسابقها الطبيعية ولكن في صورة مختلفة، فبينما تترد الحتمية عند الطبيعيين إلى كيان الإنسان العضوي أو تكوينه النفسي، أو عقله الجمعي، تنبثق الحتمية عند المثاليين من طبائع الأشياء وصفات الأفعال بحيث يكون الالتزام بالقيم هو مطابقة الطبيعة للأشياء والأفعال، وهو ما يؤدي إلى تنازل الفرد عن فاعليته ليندمج في واقع متعال عنه لا يملك أمامه إلا التسليم والإذعان له (٣).

وإذا كان الناس في حاجة إلى تحديد قاعدة صالحة للتطبيق على فطرتهم ويستطيع كل منهم أن يجد تلك القاعدة مسجلة بصورة ما في ضميره ويبحث عن النور البديع الذي يهدي ضميره... فليس لدينا أمام هذه الأسئلة سوى إجابة واحدة تفرض نفسها إذ لا أحد يعرف جوهر النفس وشريعة سعادتها وكما لها مع

١- مقدمة ابن خلدون، دار القلم-بيروت، ١٩٨٤م، ص ٣٧٤.

٢- يراجع: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصبهاني، تحقيق/ عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٥٠ وما بعدها.

٣- نظرية القيم، قنصوة، ص ١٩٢.

الصلاحية الكاملة والبصيرة النافذة غير خالق وجودها ذاته، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ) الملك: ١٤ فمنه نقبس أنوارنا وإليه نتوجه لهداية ضمائرنا (١).

ومجمل القول: فإن الفلسفات والمذاهب الفكرية التي انطلقت من الإنسان
وانتهت إلى الإنسان بعيداً عن رب الإنسان وقعت في محظورات وأدت أحلام
الإنسان وأخذت من كرامته وضيقته عليه حرته وإرادته، بل وحولت قيمه إما
إلى قيم المصلحة الخاصة وإما إلى قيم اللاقيم، وهكذا يدور الإنسان في فلك تلك
الفلسفات - سواء قلنا بنسبية القيم أو ثباتها - مادة جامدة لا يرى إلا جسداً مادياً
وجد عن طريق الحتمية الطبيعية وسيبقى بنفس الطريقة التي وجد بها، وليس ثمة
قيم يسعى إليها ويطلبها لذاتها.

أما الرؤية الإسلامية، فإنها عرفت الإنسان بنفسه، ومن أين جاء، وما
مصيره، وما المطلوب منه، ثم صاغته في قانون أخلاقي ينصلح به حاله في الدنيا
ويسعد به في مآله، ويوقن في قرارة نفسه أن الذي خلقه يطف به في كل ما يأخذ
وما يذر، وما يشرع من أمر ونهي، سبحانه يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.
وهكذا ينتهي المطاف إلى أنه " ليس ينتظر العالمُ أنبياءً ولا فلاسفةً ولا
مصلحين ولا علماء يُبدعون له بدعاً جديداً، وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر
له الإسلام هذا التفسير، ويثبتُ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هي وسائلُ
عمليةٌ تمنح الأخلاق الإنسانية أن تتبدلَ في الحي، فيخلع، منها ويلبس، إذا تبدلتُ
أحوالُ الحياة فصعدتُ بإنسانها أو نزلت، وأن الإسلام يأبى على كلِّ مسلم أن
يكون إنساناً حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضعة،
ومن خمولِ المنزلة أو نباهتها، ويوجبُ على كلِّ مسلم أن يكون إنساناً الدرجة التي
انتهى إليها الكون في سموه وكماله، وفي قلبه على منازل بعد أن صُفي في شريعة
بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم" (٢).

١ - يراجع: دستور الأخلاق في القرآن ص ٣٢-٣٣.

٢ - وحي القلم، الراجعي، ج ٢، ص ٦٩.

خاتمة

وبعد، فيمكن القول بأن خطورة النظريات التجريبية تكمن في المبدأ الذي يحكمها، فهي تقوم على مبدأين: أحدهما لاعقلاني وهو كل شيء ممكن، والآخر لا أخلاقي، وهو كل ما كان ممكنا وجب صنعه، فتتج عن ذلك ما نراه من خراب ودمار للقيم، فظهرت أخلاق الشواذ، من تغيير الخلقة، وزواج المثلية، وسيادة القوة، وانتشار الظلم، وغياب العدل والرحمة والشفقة...

هذا أولا، وإن البحث خرج بجملته من النتائج منها:

- إن الاستعمال القرآني لمادة (قوم) وما يشتق منها يبرهن على أن الله هو مصدر القيم، وأن مسلكها طريق مستقيم، وأنها ثابتة فتمتد لتشمل الحياة والكون؛ لتعمل أثرا طيبا في نفس المكلف الذي جعله الله خليفة في الأرض.

- ألزم الإسلام الجميع بضرورة الخضوع لما قرره من قيم تحفظ الفرد والمجتمع، بل تحفظ الإنسان والحيوان، والجماد... وأن الكل مسئول عما يفعل لتتجلى القيمة التي قلما نجد لها نظيرا في أي فلسفة أو دين ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٥

- غاية ما تعبر عنه المذاهب الحداثية والطبعية في عصرنا هي خلاصة ما انتهى إليه السفسطائيون قديما، فإذا كانت السفسطة قديما قاضية بأن الفضائل والقيم من وضع الضعفاء بغية قهر الطبيعة وصد بطش الأقوياء، فإن المذاهب الحديثة رددت المعنى ذاته بعبارات أشد تعصبا كما ورد في عبارات نيتشه وماركس.

- آلت القيم في المذاهب التجريبية إلى مجرد وقائع علمية تملئها عليها الحتمية الطبيعية-سواء أتها من الخارج أو من الداخل-ذلك أنها أبطلت الإرادة الإنسانية وردت القيم واختزلتها في وحدة تجريبية يسهل قيادها إلى بساط التجربة وقياسها بالمشاهدة، فالقيم في نظر البيولوجيين قيم ترد إلى القوانين التي أنتجوها وزعموا أنها تحكم الطبيعة والكيان العضوي، كقانون التطور وما ينتج عنه من الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح.

معجم الأعلام

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (٧٣٢-٨٠٨هـ، / ١٣٣٢-١٤٠٦م) مؤرخ وفيلسوف عربي، يعتبر أحد أعظم المفكرين في العالم، له: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصر من ذوي السلطان الأكبر، ووضع له مقدمة جعلت منه مؤسساً لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ.

أبيقور، Epicurus (٣٤١-٢٧٠ ق.م) فيلسوف يوناني، مؤسس الأبيقورية، قال بأن اللذة أو السعادة هي غاية الحياة الإنسانية، واعتبر الإدراك الحسي أساس المعرفة الوحيد.

أرسطو، أرسطو طاليس، Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) فيلسوف يوناني، تلميذ لأفلاطون، ويعد واحداً من أعظم الفلاسفة، قال بمثالية مغايرة لأفلاطون، له: الأورغانون، السياسة، كتاب ما وراء الطبيعة، وكتاب الطبيعة، وكتاب الشعر.

أفلاطون، Plato (٤٢٨-٣٤٧ ق.م) فيلسوف يوناني، يعد واضع علم الفلسفة بعد سقراط، واكتملت على يد أرسطو، له: الجمهورية، ومؤلفات أخرى عالج فيها السياسة والرياضة والتربية والفضيلة وغيرها.

ألوند، إيان، Ian Almond (معاصر) كاتب بريطاني، يعتبر واحداً من المهتمين بالتاريخ المشترك بين الإسلام والغرب، له: التصوف والتفكيك، ديانتان تحت راية واحدة، تاريخ الإسلام في الفكر الألماني من لايبنتز إلى نيتشه.

إنجلز، فريدريك، Friedrich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥) فيلسوف ألماني اشتراكي، يعتبر أبرز المساهمين مع ماركس في تأسيس الشيوعية الحديثة، شارك في وضع البيان الشيوعي، وأكمل كتاب رأس المال بعد وفاة ماركس.

بروتاغوراس، Protagoras (٤٨٥-٤١٠ ق.م) فيلسوف يوناني، يعتبر أول السفسطائيين، اعتبر أن الإنسان مقياس كل شيء، وكان له أثر كبير في التفكير الأخلاقي والسياسي.

بنتام، جريمي، Jeremy Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣١ م) فيلسوف وعالم اقتصاد بريطاني، اعتبر ان المتعة غاية الحياة الأساسية، له: مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع.

جود، س. أ. م، C. E. M. Joad (١٨٩١ - ١٩٥٣ م) فيلسوف بريطاني، عني بالتأليف في الفلسفة، ألف نحو أربعين كتابا، كان من دعاة العقلانية القائمة على المناهج التجريبية في العلوم الطبيعية، له: فصول في الفلسفة ومذاهبها، عودة الإيمان.

جيمس، وليم William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفس أمريكي، طور الفلسفة البرجماتية، وله مبادئ علم النفس، ضروب الخبرة الدينية، البرجماتية.

دور كايم، إميل، Emile Durkheim (١٨٥٨ - ١٩١٧ م) فيلسوف، وعالم اجتماع فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، له: في تقسيم العمل الاجتماعي، قواعد المنهج السوسيولوجي.

ديوي، جون، John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢ م) فيلسوف وعالم نفس أمريكي، أبرز ممثلي الحركة التقدمية في علم التربية بأمريكا، طور الفلسفة البرجماتية، له: المدرسة والمجتمع، الخبرة والطبيعة.

سارتر، جان بول، Jean Paul Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠ م) فيلسوف فرنسي، زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية، له: الوجود والعدم، الوجودية مذهب إنساني. الغثيان.

سقراط، Socrates (٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م) فيلسوف يوناني، يعتبر واضع أسس الفلسفة للثقافة الغربية، ثم تطورت على يد أفلاطون، واكتملت على يد أرسطو، اعتبر أن الفضيلة هي المعرفة.

شوبنهاور، آرثر، Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) فيلسوف ألماني، اعتبر أن إرادة الإنسان هي اللاعقلانية العمياء، وهي التي تقرر معظم أفعاله وليس العقل، له: العالم كإرادة وفكرة.

شيللر، جوهان كريستوف فريدريش فون، Johann Christoph Friedrich Von Schiller (١٧٥٩ - ١٨٠٥ م) مؤرخ وفيلسوف ألماني، اهتم بقضايا الحرية والمثالية، وله آثار مسرحية.

فرويد، سيجموند، Freud Sigmund (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) طبيب وعالم نفس نمساوي، مؤسس طريقة التحليل النفسي، ويعد أشهر علماء النفس وأبعدهم أثراً في الفكر الحديث، رد كل شيء إلى الغريزة الجنسية في تكوين الشخصية، له: دراسات في الهستيريا، تأويل الأحلام.

فوكوياما، يوشيهيرو فرانسيس، Yoshihiro Francis Fukuyama (١٩٥٢ - معاصر) فيلسوف واقتصادي أمريكي، قال بأن الليبرالية والديمقراطية الغربية هي نهاية التطور الاجتماعي والثقافي للإنسان، تأثر بهنتنجون وهيغل، له: نهاية التاريخ والإنسان الأخير.

فوويرباخ، لودفيغ، Ludwig Feuerbach (١٨٠٤ - ١٨٧٢م) فيلسوف ألماني، تتلمذ على يد هيغل، وتأثر بهاركس، واقتنع بكثير من آرائه، له: في الفلسفة النصرانية، روح النصرانية.

كانط، إيمانويل، Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني، قال بأن العقل البشري عاجز عن إدراك حقائق الأشياء في ذاتها، وأن كل ما نستطيع معرفته عنها هو ظاهرات ليس غير، له: نقد العقل المحض، نقد العقل العملي.

لافيل، لويس، Louis Lavelle (١٨٨٣ - ١٩٥١م) فيلسوف فرنسي، من المتحمسين لنظرية التطور، له: وعي الأنا، الحاضر الكلي، نظرية القيمة.

لوك، جون، John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) فيلسوف إنجليزي، عارض نظرية الحق الإلهي، وتبنى الدفاع عن حقوق الإنسان الطبيعية، يعتبر مؤسس المذهب التجريبي، حيث اعتبر أن التجربة أساس المعرفة.

ماركس، كارل، Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣م) عالم اقتصاد وفيلسوف ألماني، مؤسس الشيوعية الحديثة، عرفت نظرياته باسم الماركسية، واعتبر أن المجتمعات تتقدم من خلال الصراع بين الطبقات، له: رأس المال، البيان الشيوعي، الأجور والأسعار والأرباح.

ماركيوز، هربرت، Herbert Marcuse (١٨٩٨ - ١٩٧٩م) فيلسوف أمريكي، ماركسي، له: إيروس والحضارة، الإنسان أحادي الأبعاد.

نيتشه، فريدريتش، Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فيلسوف ألماني، دعا إلى نقض الأديان وضرورة انصراف الإنسان إلى الارتفاع بذاته حتى يبلغ مرتبة الإنسان الأسمى، له: هكذا تكلم زرادشت، ما وراء الخير والشر، هذا هو الإنسان.

هارتمان، نقولا، Nicolai Hartmann (١٨٨٢ - ١٩٥٠م) كاتب وفيلسوف ألماني، اهتم بالأخلاق وزعم أنه يدافع عن الإنسان ويريد أن يرد إليه اعتباره من الناحية الكونية وإعلاء قيمة الحرية لديه، له: الأخلاق.

هنتر ميد، Hunter Mid، فيلسوف أمريكي، عني بفلسفة الأخلاق، شارك في دائرة المعارف الأمريكية، له: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، مقدمة إلى علم الأخلاق.

هوبز، توماس، Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) فيلسوف إنجليزي، اعتبر بأن الناس أنانيون بطبعهم، وأنهم لا بد من دخولها في عقد اجتماعي تعهدوا بموجبه طاعة السلطان تلافياً للفوضى، له: في المواطن، في الجسد، في الإنسان.

هيجسياس، Hegesias، فيلسوف يوناني، من أتباع أبيقور، انحرف عن مذهب اللذة واعتبر أنها عادة ما تنتهي إلى الألم، وأن السعادة لا تنال في الحياة، بل إن الحياة ليست جيدة بأن تعاش، لذا فمنتهى اللذة أن يتحرر الإنسان تخلصاً من الألم، له: الانتحار جوعاً،

هيجل، جورج ويليام فريدريش، Georg Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١م) فيلسوف ألماني، مؤسس الديالكتيكية الجدلية، واعتبر أن العالم المحدود لا يعدو أن يكون انعكاساً للعقل، الذي وحده حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى.

هيوم، ديفيد، David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦م) فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي، طور المذهب التجريبي لجون لوك إلى شك مطلق، واعتبر أن التجربة مصدر المعرفة، وأن وجود الله وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، له: بحث في الفهم البشري.

وايتهيد، ألفريد نورث، Alfred North Whitehead (١٨٦١ - ١٩٤٧م) فيلسوف وعالم رياضيات إنجليزي، يعرف بأنه أبرز الفلاسفة المنتمين إلى فلسفة الصيرورة، له: مفهوم الطبيعة، العلم والعالم الحديث، الصيرورة والواقع.

فهرس المراجع

- الأجور والأسعار والأرباح، كارل ماركس، دار التقدم، موسكو، الطبعة الثانية، بدون سنة طبع.
- إرادة الاعتقاد، وليم جيمس، ترجمة: محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦م.
- الاستقراء والمنهج العلمي، محمود فهمي زيدان، دار الجامعات المصرية، ١٩٩٧م.
- استنباط القيم في حقل علمي، دفتحي ملكاوي، بحث منشور في كتاب القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: نادية مصطفى، سيف الدين عبد الفتاح، دار البشير، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١١م.
- أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٥٢م.
- الإنسان ذلك المجهول، ألكسي كاريل، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، د. ت.
- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٦م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م.
- تحقيق في ذهن البشري، ديفيد هيوم، ترجمة محمد محجوب، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م.
- تعددية القيم، ما مداها وما حدودها، طه عبد الرحمن، طبع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
- تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصبهاني، تحقيق: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٩٨٨م.
- تمهيد للفلسفة، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.

- الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، نجيب إسكندر وآخرون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- دروس في الفلسفة، يوسف كرم، إبراهيم مدكور، عالم الآداب، بيروت، ٢٠١٦م.
- دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة. د.ت.
- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت، ٢٠٠٧م.
- رواد المثالية في الفلسفة الغربية، عثمان أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
- روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
- روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الاتئمانية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء، ٢٠١٢م.
- الزمان الوجودي، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م.
- السنن الكبرى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
- سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- شوبنهاور، عبد الرحمن بدوي، ضمن سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي، دار القلم-بيروت.
- شيللر، عثمان أمين، ضمن سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، جون ديوي، ترجمة: لبيب النجيجي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- العمدة في فلسفة القيم، عادل العوا، طلاس للترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- العمل الديني وتجديد العقل طه عبد الرحمن المركز الثقافي العربي-بيروت، ط/الرابعة، ٢٠٠٦م.
- الفرد في فلسفة شوبنهاور، فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.
- فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.
- فلسفة التربية الإسلامية، دراسة مقارنة بالفلسفات المعاصرة، ماجد عرسان الكيلاني، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠٩م.
- الفلسفة أنواعها ومشاكلها، هنتر ميد، ترجمة فؤاد زكريا، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
- قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، محمود محمدي زقزوق، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٨م.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- القيم الحضارية في الإسلام، محمد عبد الفتاح الخطيب، دار البصائر، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير سيف الدين عبد الفتاح، نادية مصطفى، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- كارل ماركس أو فكر العالم: جاك اتالي، ترجمة: محمد صبح، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٨م.
- كتاب الأخلاق، أحمد أمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٣١م.
- الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت ومطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩١م.

- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ج ١٢.
- اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الفيلسوف الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، توماس هوبز، ترجمة: ديانا حرب، بشرى صعب، دار كلمة، أبو ظبي، ٢٠١١م.
- الماركسية والإسلام، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.
- محاضرات في الفلسفة، لالاند، ترجمة: أحمد حسن الزيات، الجامعة المصرية، ١٩٢٩م.
- المدخل إلى السنن الكبرى البيهقي، تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظم، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.
- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠١٣م.
- المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: عبد الحليم محمود، أبو بكر ذكري، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- المشكلة الخلقية، زكريا إبراهيم، ضمن سلسلة مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩م.
- مصير الإنسان، كونت دي نوي، ترجمة خليل الجر، المطبعة البوليسية، دار جونية، لبنان، ١٩٦٧م.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.
- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة للطباعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- مغامرات الأفكار عرض فلسفي رائع للأفكار والحضارات، وايتهد، ترجمة: أنيس زكي حسن، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٠م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار القلم-بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.

- مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.
- موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، مرزوق بن صنيان بن تنباك وآخرون، دار رواح، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الربيع بن ميمون، الجزائر، ١٩٨٠م.
- نظرية القيم في الفكر المعاصر، صلاح قنصوة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، سنة ٢٠١٠م.
- نقد القيم مقاربات تخطيطية لمنهاج علمي جديد، عبد الله الفيحي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرنسيس فوكوياما، ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
- نيتشه، عبد الرحمن بدوي، ضمن سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي، دار النهضة القاهرة، ١٩٥٦م.
- هل يمكن قيام أخلاق وجودية، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهرية، جان بول سارتر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.
- الوجودية مذهب إنساني، جان بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم الحفني، الدار المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
- الوجودية، جون ماكوري، دار الشرق للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦م.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

فهرس الموضوعات

مقدمة	٣٥٠
تمهيد مفهوم القيم وتصنيفها	٣٥٧
أولاً: مفهوم القيم:	٣٥٧
القيم في الاصطلاح:	٣٥٨
ثانياً: تصنيف القيم:	٣٦٠
الفصل الأول مصادر ونتائج القول بنسبية القيم	٣٦٢
المبحث الأول مصادر ومنطلقات نسبية القيم عند القائلين بها	٣٦٣
أولاً: المذهب التجريبي:	٣٦٤
ثانياً: المذهب الماركسي:	٣٦٦
ثالثاً: المذهب الاجتماعي:	٣٦٩
رابعاً: مذهب التحليل النفسي:	٣٧٢
خامساً: مذهب الإرادة المطلقة:	٣٧٥
سادساً: الوجودية:	٣٧٧
سابعاً: البراجماتية:	٣٧٩
* أسباب القول بنسبية القيم:	٣٨٤
المبحث الثاني النتائج المترتبة على القول بنسبية القيم	٣٨٦
الفصل الثاني مصادر ونتائج القول بثبات القيم	٣٩٥
توطئة:	٣٩٦
المبحث الأول مصادر ومنطلقات ثبات القيم عند القائلين بها	٣٩٧
أولاً: مصادر القول بثبات القيم في الفلسفة المثالية:	٣٩٧
ثانياً: مصادر القول بثبات القيم في الرؤية الدينية	٤٠٣

المبحث الثاني النتائج المترتبة على القول بثبات القيم	٤٠٩
خاتمة	٤١٤
معجم الأعلام	٤١٦
فهرس المراجع	٤٢٠
فهرس الموضوعات	٤٢٥